

"الدفعة القرآنية الحية" واستئناف الدور الحضاري The living Qur'anic batch and the resumption of the civilized

عمار قاسمي^(*)

مخبر الدراسات العقديّة ومقارنة الأديان، جامعة الأمير

عبد القادر للعلوم الإسلامية (الجزائر)

a.gasmi@univ-emir.dz

تاريخ النشر:
2023/06/25

تاريخ القبول:
2023/11/25

تاريخ الاستلام:
2022/10/08



ملخص:

يهدف هذا البحث إلى التذكير بدور المسلم ورسالته في جانبيها؛ الداخلي؛ الذي يتمثل في معرفة نفسه وأتمته، والخارجي؛ بمعرفة ما يعتمل في الفكر العالمي، وهذا الدور هو في حد ذاته دور الدين بجانبه؛ الجانب الذي يحدد قيمته الغيبية أي صلته بعالم الغيب، والجانب الذي يسهم في تكوين وتطوير الواقع الاجتماعي، أي صلته بعالم الشهادة، ولما كان مالك بن نبي قد وجد أن الجانبين يجتمعان معا في القدوة الحسنة المصطفى ﷺ، ويشكلان "الدفعة القرآنية الحية"، فالبحث يهدف أيضا إلى تفعيل الوعي بالشروط الجديدة -"شروط النهضة"- لعودة الظاهرة القرآنية وتحقيق الإعجاز، كما يهدف إلى دفع الإنسان عن طريق القرآن الكريم والسنة المطهرة، إلى اليقظة والتدرج في مراتب الإسلام حتى يصل إلى مرتبة الإحسان، مرتبة الرجل الأمة صاحب الخلق العظيم الذي يؤدي إلى ميلاد مجتمع يستأنف الدور الحضاري ويحرك عجلة التاريخ.

أهم النتائج: كلما زاد المسلم في درجة التزكية وألتزم أكثر بالمعاملات، ارتفع إيمانه حتى إذا بلغ أعلى مراتبه وهي "الإحسان" تشكلت صورة "الرجل الأمة"، الذي به يكون "ميلاد مجتمع" يستأنف الدور الحضاري. ولتحقيق "الدفعة القرآنية الحية"، ينبغي التخلص من كل الاختلافات العقديّة، والالتفاف حول القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وتوفير شروط قراءته وعدم الاستعجال في انتظار إعجازه ووحيه، ثم الاستفادة من منجزات الحضارة المعاصرة والخبرة الإنسانية في المجالات العلمية والتقنية.

الكلمات المفتاحية:

الدفعة القرآنية الحية؛ الحضارة؛ الإحسان؛ الرجل الأمة.

(*) الدكتور: عمار قاسمي، أستاذ محاضر (أ)، تخصص: العقيدة الإسلامية.

Abstract :

This research aims to recall the role of the Muslim and his mission in both sides, which is to know himself, his nation, and the external, by knowing what is in world thought, and this role is in itself the role of religion on its side; Malik bin Nabi had found that the two sides together meet in the good example of Mustafa, the research also aims to activate awareness of the new conditions, as well as to push man through the Holy Quran and the Sunnah, to vigilance and gradualism In the ranks of Islam until it reaches the level of charity that leads to the birth of a society that resumes the role of civilization and moves the wheel of history.

The most important results: increased acclamation and commitment to transactions, raises the degree of faith until it reaches "charity" and forms the image of the "man of the nation", so that the "birth of a society" resumes the role of civilization. To achieve the "living Qur'anic impulse", all streptococcal differences should be eliminated, the Qur'an and sunnah should be circumvented, the conditions for reading should be provided and the achievements of contemporary civilization should be utilized.

Keywords:

The living Qur'anic batch; civilization; Al-Ihsan; man of the nation.

1. مقدمة

تمهيد: بدأت نقطة الانعطاف نحو الانحدار لمنحنى الأمة الإسلامية، في الربع الأخير من القرن الأول الهجري، بعد أن شغلت الحياة الدنيا ركنا فسيحا في قلوب المسلمين، على خلاف السلف من قبلهم، فبدأ الخلاف والتشردم والانقسام، وآل الأمر إلى غلبة "الغرب" وإمساكه بزمام الحضارة البشرية، تلت هذه المرحلة محاولات لإعادة بناء الأمة بعد أن استخلصت أسباب الضعف وعوامل تمزيق الوحدة الإسلامية. وترجع هذه العوامل إلى الأثر السلبي للمذاهب العقدية، لأنها أدت إلى ضعف البنية التصورية والقوة المنهجية بسبب اضطراب المفاهيم والجنوح بتعاليم الإسلام إلى ما هو بعيد عنه، وإلى الاعتداء الذي قام به التتار من الشرق والغزاة الصليبيين في الغرب، فاتجهت مشاريع إعادة بناء الأمة إلى محاولة إعادة بناء النظام المعرفي من خلال إضعاف التعصب للمذاهب العقدية واسترجاع المفاهيم بفصل ما ليس من الإسلام عما هو منه، وإضعاف التقليد والدعوة إلى الاجتهاد ببناء القوة الاجتهادية والإبداعية التي تنتج المعرفة والسلوك. وقد حمل لواء هذه المرحلة أصحاب المشاريع الكبرى، مثل؛ ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، محمد بن علي السنوسي الكبير، والغزالي أبو حامد والشاطبي.. وغيرهم كثير، هذه المشاريع - وللأسف- لم تقرأ في كليتها ولم تستفد منها الأمة حتى حل بها الاستعمار الحديث، ليستمر في النهب والسلب والدمار وزرع الأمراض الجسدية والنفسية والاجتماعية حتى يطيل أزمة الأمة وسباتها.

إشكالية البحث: وفي ظل هذه الحالة ولدت مشاريع جديدة تدعو إلى إصلاح الأمة ونهضتها وإعادة بنائها، من بينها مشروع مالك بن نبي في مصنفه مشكلات الحضارة، ولما كانت المشاريع السابقة وهذه المشاريع اللاحقة تتميز بوحدة الهدف ووحدة المرجعية، وتعتمد كلية على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، لأنه هو المحرك الأساسي للنهضة، فإن مالك بن نبي بدوره أسس لشروط النهضة بكتابه

"الظاهرة القرآنية" بالأهداف والمرجعية نفسها لكن بتجربة تاريخية جديدة: فما هي "الدفعة القرآنية الحية"؟ وكيف جعلها مالك بن نبي شرطا أساسيا لاستئناف الدور الحضاري وحركة التاريخ، في ظل هذه الظروف التاريخية الجديدة؟

الأهداف: يهدف البحث إلى دفع الإنسان بكليته إلى أداء وظائفه المركزية؛ العبادة والخلافة والعمارة وبالأخص العبادة وما يتعلق بها من أفعال القلوب التي يتميز بها الخطاب القرآني، ليعيد بناء نفسه وكأنه يولد ولادة قلبية جديدة، وفي انتظار ذلك، يهدف إلى إعادة بناء التصور من خلال استرجاع الكلمات وتطبيها بالعمل الصالح لترتفع إلى بارئها لتحقيق القومة، والابتعاد عن التعصب المذهبي والخلاف والتشردم، ونفترض أن يكون ذلك بالتجربة الإسلامية. كما يهدف إلى إعادة بناء القوة المنهجية من خلال تجديد التكوين العقلي "بالفكر العظيم" الذي ينتج عن الإيمان العظيم، بداية بإدراك العجز عن الإدراك، إلى تكوين القوة الاستدلالية، قوة الميزان، ونفترض أن يكون ذلك بالتجربة الإيمانية. وأخيرا يهدف العمل إلى قتل روح التقليد وفسح المجال للقوة الاجتهادية ونفترض أن يكون ذلك بالتجربة الإحسانية، وكل هذه التجارب هي مدارج في "الدفعة القرآنية الحية".

المنهجية: لهذا جاء هذا العمل في ثلاثة مباحث؛ الأول تولى البحث في مفهوم "الدفعة القرآنية الحية" ومبررات استعمال هذا المصطلح المركب، والثاني تولى فحص مفاهيم الحضارة والثقافة وموقع الإنسان في معادلتيهما، من خلال الوقوف عند أصول الحضارة المعاصرة والأزمات التي تمخضت عنها، والثالث؛ ولج إلى مدارج الدفعة القرآنية الحية وصناعة الإنسان الذي يستأنف الدور الحضاري، حيث بدأ بالتجربة الإسلامية واستعادة مرتبة الرجولة والمروءة، ثم التجربة الإيمانية واسترجاع مرتبة الفتوة، وأخيرا التجربة الإحسانية واسترجاع مرتبة الرجل الأمة الذي يؤدي إلى ميلاد مجتمع يستأنف الدور الحضاري. ولتحقيق هذه الخطة تطلب البحث إتباع منهج الاستقراء، لاستجماع جل الجزئيات التي تتعلق بالدفعة القرآنية في مصنفات مالك بن نبي وغيرها من المصنفات التي لها علاقة بالموضوع، لتكوين فكرة شاملة بمثابة قراءة جديدة لفكر مالك بن نبي، وهذا لا يعني غياب المناهج الأخرى، إذ قد نجد أثرا للمنهج الاستنباطي وأثرا للكثير من الآليات المنطقية كآلية التعريف وإعادة التعريف وآلية التعريف بالمقابلة وغيرها.

2. المبحث الأول: مفهوم الدفعة القرآنية الحية

2.1. مفاهيم؛ الدفعة، القرآنية، الحية:

أ- **الدفعة:** في اللغة العربية "دفع" الدال والفاء والعين، أصل واحد يدل على تنحية الشيء⁽¹⁾، وإزالته بقوة⁽²⁾، والدَّفْعَةُ: بالفتح المرّة الواحدة، أو انتهاء جماعة القوم إلى موضع بمَرَّة⁽³⁾، والدَّفْعَةُ: ما دُفِعَ من سِقَاءٍ أو إناء فأَنْصَبَ بِمَرَّةٍ⁽⁴⁾، "والدفع صرف الشيء قبل الورد، كما أن الرفع صرف الشيء بعد الورد، وإذا عُديّ (دفع) ب (إلى) فمعناه الإنالة، نحو ﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾ (النساء:6)، وإذا عُديّ ب (عن) فمعناه الحماية ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ (الحج:38)"⁽⁵⁾.

فالدَّفْعَةُ في العربية إذا ارتبطت بالقرآن الكريم والإنسان؛ تدفع هذا الأخير مرة واحدة فتمنحه قوة الحركة، بعد أن تُزِيلَ عنه ما تراكم فيه من عناصر سلبية منعه عن الحركة، وتحميه من السوء، وتستمر في حمايته ما استمر القرآن في الدفع حتى يصل إلى غايته، وهنا يكمن معنى "الحياة"، فالإمداد القرآني هو الذي يمد الإنسان بالحياة ويجعل الحركة مستمرة.

ب- **القرآنية:** نسبة إلى القرآن، وهو التنزيل العزيز، ويعني الجمع لأنه يجمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض، فيقال: قرأت الشيء قرآنا أي؛ جمعته وضممت بعضه إلى بعض، وقد يعني الصلاة لأن فيها قراءة⁽⁶⁾، وبعيدا عن السجال الذي حصل حول معنى القرآن ولفظه⁽⁷⁾، فإن "القرآن الكريم هو البحر المحيط منه يتشعب علم الأولين والآخرين"⁽⁸⁾، و"الأمة من السلف أجمعت على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، وهو منتظم من الحروف والأصوات، ومؤلف ومجموع من سور وآيات، مقروء بالسنن، محفوظ في صدورنا، مسطور في مصاحفنا، ملموس بأيدينا، مسموع بأذاننا،

1 - ابن فارس، أحمد. (1399هـ). معجم مقاييس اللغة. تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج3، دط. بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ص288.

2 - ابن منظور، محمد. لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، القاهرة: دار المعارف، دت، دط، ص1394.

3 - الزمخشري، أبي القاسم. (1419هـ-1998م). أساس البلاغة تحقيق محمد باسل عيون السود، ط1. بيروت، دار الكتب العلمية، ص290.

4 - محمد ابن منظور، المصدر السابق، ص1394.

5 - الكفوي أبي البقاء أيوب بن موسى. (1419هـ). الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ط2. بيروت، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ص450.

6 - محمد ابن منظور، المصدر السابق، ص1563.

7 - الكفوي، المصدر السابق، ص720.

8 - الغزالي، أبو حامد. (1989م)، جواهر القرآن، تحقيق: محمد رشيد رضا، ط2، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ص21.

منظور بأعيننا، ولذلك يجب احترام المصحف وتبجيله، حتى لا يجوز للمحدث مسه ولا القران إليه، ولا يجوز للجنب تلاوته⁽¹⁾، والقرآن يشترط الطهارة لكي يغدق على المسلم بالمعرفة والفهم والفقهاء، لكن ليست الطهارة الجسدية فقط إنما الطهارة التزكوية الشاملة التي تؤدي إلى انفتاح القلب وصفاء العقل، للتدبر والتفكير والتأمل في آيات الأفاق والأنفس والهداية والتأييد.

فإذا ارتبط مصطلح القرآن بمصطلح الدفعة والإنسان: يزيد تلك الحركة والدفع والتطهير خاصية الضم والجمع، في بنیان مرصوص يشد بعضه بعضاً، فتصبح الأمة كالجسد الواحد إذا اشتكى منها عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

ج- الحياة: الحياة في اللغة العربية لفظ مشتق من "حَيَّ" الحاء والباء والحرف المعتل، وهي أصلان: أحدهما خلاف الموت، والآخر الاستحياء الذي هو ضد الوقاحة⁽²⁾.

وفي الاصطلاح استعملت الحياة بدلالات مختلفة حسب القوى المتضمنة فيها، وهي القوة النامية، والقوة الحاسة، والقوة العاملة العاقلة، حيث يشترك الإنسان والحيوان والنبات في القوة النامية الناتجة عن البنية، وهي الجسم المركب من العناصر، على وجه يحصل في تركيبها مزاج معتدل، ويشترك الإنسان والحيوان في القوة الحاسة التي بها يسمى الحيوان حيواناً، وينفرد الإنسان بالقوة العاملة العاقلة وهي عبارة عن ارتفاع الغم وعلى هذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: 169)، أي يتلذذون في الحياة الأخروية الأبدية، التي يتوصل إليها بالحياة التي هي العقل والعلم⁽³⁾، والاختلاف يرجع إلى القوة النامية لأن هناك من يجعلها شرطاً للحياة وهم المعتزلة والفلاسفة وهناك من يستثنئها ويجعلها شرطاً هامشياً، لهذا كانت الحياة عند البعض "هي صفة توجب للموصوف بها أن يعلم ويقدر"⁽⁴⁾، وعند البعض الآخر؛ "فهي عبارة عن قوة مزاجية تقتضي الحس والحركة"⁽⁵⁾ وعند غيرهم؛ "الحياة ما تصير به الجملة كالشيء الواحد في جواز تعلق الصفات بها"⁽⁶⁾.

إذن فلفظ الحياة يتضمن عدة قوى أهمها: القوة النامية والقوة الحركية والقوة الحاسة والقوة العاملة والقوة العاقلة العاملة، فإذا ارتبط هذا المصطلح بمصطلحي القرآن والإنسان، يضيف إليهما القوة العاملة

1 - الكفوي، المصدر السابق، ص721.

2 - أحمد بن فارس، المصدر السابق، ص288.

3 - الكفوي، المصدر السابق، ص406.

4 - الجرجاني، الشريف. (د ت). معجم التعريفات تحقيق محمد صديق المنشاوي، دط. القاهرة، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، ص83.

5 - الكفوي، المصدر السابق، ص406.

6 - العسكري، أبو الهلال. (د ت). الفروق اللغوية تحقيق محمد إبراهيم سليم، دط. القاهرة، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، ص102.

والقوة النامية والقوة الحاسة فتزيد الأولى من نشاط الأمة وتُحيي لها منطقتها العملي، وتزيد الثانية في نموها وتجعلها الثالثة تتحسس طريقها وتصغي إلى محركات التاريخ، وأكثر من هذا إذا ارتبطت الحياة بالقرآن الكريم يحيي فيها الاستحياء، الذي هو المدخل إلى شعب الإيمان.

2، 2. وقفة عند مصطلح "الدفعة القرآنية الحية":

يقول مالك بن نبي: "حتى إذا وهنت الدفعة القرآنية توقف العالم الإسلامي كما يتوقف المحرك عندما يستنفذ آخر قطرة من الوقود"⁽¹⁾، فالقرآن الكريم هو الذي أعطى للمجتمع العربي الدفعة الأولى لتحريكه حتى تحول إلى أمة، فإذا توقفت هذه القوة التي منحتها هذا الدفع تكون نهاية "دورة" وهجرة "حضارة" إلى بقعة أخرى تبدأ فيها دورة جديدة، لتركيب عضوي تاريخي جديد، ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان: 30)، فبهجران القرآن يتوقف إشعاع الروح فيخمد إشعاع العقل وتتبدد آثاره فيفقد العلم كل معناه ويفقد الإنسان تعطشه للفهم والفقهِ وإرادته للعمل، عندما يفقد الهمة وقوة الإيمان، فتلتهمه الثقافة الغربية، كما يلتهم الوحش فريسته، وما كان لأي معوض زمني أن يقوم خلال التاريخ مقام هذا المنبع الوحيد للطاقة الإنسانية الذي هو الإيمان عن طريق "الدفعة القرآنية الحية" والتدرج في منازل السائرين ومراتب الإسلام من التجربة الإسلامية التي تحيي في الإنسان الرجولة والمروءة إلى التجربة الإيمانية التي تحيي فيه الفتوة، فإلى التجربة الإحسانية وتحقيق الخلق العظيم وبلوغ مرتبة "الرجل الأمة"⁽²⁾ الذي به يكون ميلاد مجتمع.

فاستعمال هذا المصطلح المركب له مبررات وأهداف يمكن جمعها في المحاور التالية:

أ- المحور الإيماني: بسبب غلبة الغرب وضعف وهوان الأمة المسلمة، انطمست الدلالات الحقيقية لمفهوم "القرآن الكريم"، فأصبح رمز للتبؤك في الضمير المسلم وفي الممارسة العقدية للمسلمين، ومالك بن نبي في تخطيطه للدورة الحضارية، أدرك أن مصدر الشرارة والتركيب بين عناصر الحضارة (الإنسان والتراب والوقت) يكون بالدفعة القرآنية الحية "مركب الحضارة" العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض"⁽³⁾، لاستعادة الأسس العقلية الثابتة للإيمان بالمصدر الإلهي لهذا الكتاب، وأنه معجزة مستمرة عبر الزمان والمكان، لا في لفظه ونظمه وبيانه فقط، بل في عالم السنن أيضا يقول البشير الإبراهيمي: "ما أحوج الإنسانية اليوم إلى القرآن، وهي في هذا الظلام الحالك من الضلال، وقد

1 - بن نبي، مالك. (تصوير 1406هـ-1986م عن ط 1981م). وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دط. دمشق، دار الفكر، ص 27.

2 - بن نبي، مالك. (إعادة ط 1420هـ-2000م). ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 3: 1986. بيروت، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، ص 17.

3 - بن نبي، مالك. (2009م). شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، ط 9. دمشق، دار الفكر، ص 50.

عجز العقل عن هدايتها وحده، كما عجز قديما عن هدايتها، لولا تأييد الله له بالأمداد السماوية من الوحي الذي يقوي ضعفه إذا أدركه الوهن، ويصلح خطاه إذا اختل ميزانه، وكما أتى القرآن لأول نزوله بالعجائب والمعجزات في إصلاح البشر، فإنه حقيق بأن يأتي بتلك المعجزات في كل زمان، إذا وجد ذلك الطراز العالي من العقول التي فهمته، وذلك النمط السامي من الهمم التي نشرته وعمته، فإن القرآن لا يأتي بمعجزاته، ولا يؤتي آثاره في إصلاح النفوس، إلا إذا تولته بالفهم عقول كعقول السلف، وتولته بالتطبيق العملي نفوس سامية وهمم بعيدة كنفوسهم وهممهم⁽¹⁾، لهذا أكد الشيخ عبد الحميد ابن باديس رحمه الله على ضرورة فهم القرآن لأن عدم فهمه يؤدي إلى عدم العمل به، وعدم العمل به يؤدي إلى مفارقة الإنسان لعقيدته وواقعه⁽²⁾، فينساق بالضرورة إلى عقائد غير عقائده وواقع غير واقعه، فيرتفع العلم. زيادة على ذلك فإن الكثير من المصائب والفتن التي حلت بالأمة، كان سببها الرئيس هو عدم فهم القرآن لأن فهم القرآن حق فهمه وفقهه حق فقهه يؤدي إلى الألفة واجتماع القلوب، والاعتصام بحبل الله العظيم، لهذا جعل الله أشرف العلوم كلها وأعلى درجات العلم معرفة كلام الله وفهمه وفقهه، فالرصيد الإيماني للمسلم مرتبط بجواهر القرآن⁽³⁾، فهو البحر المحيط الذي ينطوي على أصناف الجواهر والنفائس، وأن مقاصده ونفائسه ترجع إلى ستة أقسام، ثلاثة منها أصول مهمة، وثلاثة تابع متممة، وأحاد الأقسام الستة تنتشعب فتصير عشرة، تنتشعب منها علوم الأولين والآخرين.

ب- المحور اللغوي: يعتقد مالك بن نبي إن لكل شعب هواية يصرف إليها مواهبه الخلافة، طبقا لعبقريته ومزاجه؛ والعرب "كانت هوايتهم في لغتهم، فلم يقتصروا على استخدامها في ضرورات الحياة اليومية، شأن الشعوب الأخرى، وإنما كان العربي يتفنن في استخدام لغته، فينحت منها صورا بيانية لا تقل جمالا عما كان ينحته (فيدياس) في المرمر، وما كانت ترسمه ريشة (ليوناردو دوفانشي) في لوحاته المعلقة في متاحف العالم الكبرى... فالعرب كانوا عبدة البيان قبل أن يكونوا عبدة الأوثان، وقد سمعنا من استخف منهم بأوثانهم، ولم نسمع قط منهم من استخف ببيانهم"⁽⁴⁾ في الجزيرة العربية والهلال الخصيب، كانت تعيش لغات كثيرة اضمحلت واندثرت وبقيت اللغة العربية تتمتع بحياة حقيقية، يقول إسماعيل راجي الفاروقي: "لنا أن نستخلص إذن أن العربية التي نزل بها الوحي كانت لغة جميع العرب في شبه الجزيرة،

1 - ابن باديس، عبد الحميد. (2009م). تفسير ابن باديس أو مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، تح أبو عبد الرحمن محمود، ط1. الجزائر، دار الرشيد للكتاب والقرآن الكريم، ص6.

2 - ابن باديس، عبد الحميد. تفسير ابن باديس أو مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص271.

3 - للاستزادة ينظر: - الغزالي، أبو حامد، جواهر القرآن، مصدر سابق.

4 - بن نبي، مالك. (إعادة 1420هـ-2000م). الظاهرة القرآنية ترجمة عبد الصبور شاهين، ط4: 1987م. بيروت، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، ص61.

وأن المكيين وعرب الجنوب قد اكتسبوها في الأزمنة الخوالي نتيجة لانتقال السكان إلى تلك المناطق، وأخيراً أن الصحراء هي المولد والمهد للقبائل الرحل، مثلما هي مهد لغتهم العربية⁽¹⁾، فما هي أسباب الحياة في هذه اللغة؟

تتصف العربية بمجموعة من الخصائص أهمها:

أولاً: تستوعب العربية الخبرات الجديدة لأن الكثير من الألفاظ دخلت إليها واستوطنت وأصبحت عربية بالممارسة⁽²⁾، بل أن مقدرة لغة ما على تمثيل الكلام الأجنبي تعد مزية وخصيصة لها، إذا هي صاغته على أوزانها وأنزلته على أحكامها وجعلته جزء لا يتجزأ من عناصر التعبير فيها.

ثانياً: تحتوي العربية تغيرات التاريخ؛ فالشعر الجاهلي يحمل الكثير من عناصر الوعي التاريخي، "لأن ما لاحظته علماءنا، مناسبة حروف العربية لمعانيها"⁽³⁾، هذه المناسبة في حالتها البساطة والتركيب، وطوري النشأة والتوليد، هي التي ولدت فيهم الوعي التاريخي، فاللغة العربية عامل جوهري في وحدة شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب.

ثالثاً: تتصف العربية بخاصية جوهريّة تتمثل في ثلاثية الحروف، أي أن كلمات اللغة تتكون من جذور في كل منها ثلاثة حروف صوامت، منها تتكون الكلمات، بعملية تدعى "التصريف" أو "التوريق" أو "الاشتقاق"⁽⁴⁾، بتغيير حركات الصوامت الثلاثة حسب قاعدة معينة، أو بإضافة حرف صامت أو أكثر في شكل سابقة أو لاحقة أو داخلية، مع تغيير حركة الكلمة كذلك، وهذه العملية تشكل القلب واللب من اللغة كما تعكس صورة الوعي عند متكلميها.

رابعاً: يربط الشاطبي بين اللغة والشريعة: "إذا كانت الشريعة عربية فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم لأنهما سيان في النمط، ما عدا وجوه الإعجاز، فإذا فرضنا مبتدئاً في فهم العربية فهو مبتدئ في فهم الشريعة، أو متوسطاً فهو متوسط في فهم الشريعة، والمتوسط لم يبلغ درجة النهائية، فإذا انتهى إلى الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة، فكان فهمه فيها حجة، كما كان فهم الصحابة وغيرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجة، فمن لم يبلغ شأوهم، فقد نقصه من فهم الشريعة بمقدار التقصير عنهم، وكل من قصر فهمه لم يكن حجة، ولا كان قوله مقبولاً"⁽⁵⁾.

1 - الفاروقي، إسماعيل راجي. (1998م). أطلس الحضارة الإسلامية ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، ط1. الرياض، مكتبة العبيكان، ص60.

2 - (صبحي الصالح، 2009م، ص315).

3 - (صبحي الصالح، ص142).

4 - (صلاح الدين الزعبلوي، 1982م، ص37).

5 - الشاطبي، إبراهيم بن موسى. (1997م). الموافقات، ج5، ط1. المملكة العربية السعودية، دار بن عفان للنشر والتوزيع، ص53.

خامسا: اللغة العربية لها علاقة بسعة الذهن وحركة الفكر: "ففي اللغة الانجليزية يوجد 1120 طريقة للتعبير عن 40 صوتا، وفي اللغة الإيطالية يوجد 33 طريقة فقط للتعبير عن 25 صوتا، فالذين يتكلمون الانجليزية يستخدمون مناطق في المخ لا يستخدمها الإيطاليون"⁽¹⁾، والشيء نفسه بالنسبة للغات الأوروبية الأخرى، فهي لغات تقوم على النحت، عدد أصواتها محدود وعدد طرق التعبير عن هذه الأصوات محدود أيضا، لهذا كان من الأسباب الرئيسية لخروج المستمدر الفرنسي من الجزائر عامل اللغة؛ حيث اختلطت اللغة الفرنسية بالعربية والكورسيكية والإيطالية فلم تصمد واعوج لسان المستمدرين وآلت لغتهم إلى اللغة العربية التي تمتلك أسباب الحياة⁽²⁾، أما اللغة العربية فهي لغة اشتقاق، إذا ارتبطت بالقرآن الكريم يصبح لديها ما لانهاية من الطرق للتعبير عن ما لا نهاية من الأصوات، وهذا ما تؤكد الآية الكريمة: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف: 109)، فيصبح التكوثر⁽³⁾ خاصية أساسية من خصائص العقل.

ج- المحور المعرفي: أن "الدفعة القرآنية الحية" يلازمها معنى "الإنسان"، ومعلوم أن مفهوم الإنسان يرتبط بالأخلاق، حتى أصله في اللغة العربية من أكثر الألفاظ ارتباطا بالأخلاق الحميدة والعمل الصالح، وهذه أكثر اللطائف الاتفاقية التي اجتمعت فيه: فهو يعني آدم ومن خرج من ظهره من بني البشر، من أدمة الأرض، يتميز بالخلطة والألفة والاتفاق والقرابة⁽⁴⁾ والوسيلة والظهور⁽⁵⁾، ويسعى إلى الإصلاح والتأليف بين القلوب والتوفيق ولأم الجروح، ونشر المحبة والاتفاق، وهو الذي يسعى ليكون قدوة وأسوة حسنة لأهله ولغيره، بالمعرفة والحدق ومراكمة الخبرة، حسن الظن، طيب الحديث، أنيس⁽⁶⁾، حسن المنظر، صحيح المخبر، يصلح للشدة والرخاء، يتميز بالحرية والإقبال لكن بعد الاستئذان والاستعلام والنظر واليقين، وهبه الله نعمة النسيان، وهو يشبه الكائنات الأخرى في التكاثر والحفاظ على النسل.

- 1 - كريس فريث (2012م). تكوين العقل كيف يخلق المخ عالما الذهني ترجمة شوقي جلال، ط1. القاهرة، المركز القومي للترجمة، ص46.
- 2 - أحمد توفيق المدني، دت، ص66-74.
- 3 - طه، عبد الرحمن. (1998م). اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط1. بيروت، المركز الثقافي العربي، ص18-19.
- 4 - محمد ابن منظور، مصدر سابق، ص147، 148، 150، 44، 45، 46.
- 5 - الفراهيدي، الخليل بن أحمد. (1424هـ). كتاب العين تحقيق عبد الحميد هنداوي، ج1، دط. بيروت، دار الكتب العلمية، ص92-93.
- 6 - أحمد بن فارس. معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق، ص145.

فارتباط الدفعة القرآنية الحية بالإنسان يلزمه معنى الاعتبار، والاعتبار هو إعمال للعقل لا في معرفة الأسباب وحدها، وإنما في معرفة المقاصد أيضا، وهذا المعنى هو الذي ينبغي أن يفهم من الآيات القرآنية التي ذكر فيها التدبر والتفكير، خاصة آيات الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، ويصل الإنسان إلى هذه الرؤية من خلال التدرج في تحقيق الوعي بالنسيج السنني الكوني الذي يتضمن أربع منظومات سننية كبرى؛ سنن الخلق (الأصالة والفعالية والتكاملية والاطراد)، وسنن التسخير (الآفاق والأنفس والهداية والتأييد)، وسنن الاستخلاف (الابتلاء والتدافع والتجديد والتداول)، وسنن الوقاية (الفهم والقوة والبناء والمواجهة)، وكل مفردة من هذه السنن لها وظائف وجودية؛ داخلية تخصها وخارجية تربطها في علاقة تكاملية مع السنن الأخرى، وكل مفردة لها سلطان على نفسها وعلى منظومتها والمنظومات الأخرى، فسنن الاستخلاف هي التي تحدد الدورة الوجودية، وسنن التسخير هي التي تحدد الميزانية التسخيرية وهكذا، وكلما زاد الوعي بهذه السنن أدرك المسلم هويته الذاتية، حتى إذا بلغ هذا الوعي مرتبة معينة انبثق المنهج، فتزدوج وظيفته بإضافة خاصية العمل إلى النظر والرؤية، ونقطة الانطلاق تكون من الوعي بسنن التسخير، لأن أي عجز في تحقيق هذا الوعي يؤدي إلى ترك حركة الاستخلاف لولايات الاستكبار والتخلف والذل⁽¹⁾، ولا يحصل هذا الوعي بسنن التسخير، إلا إذا بلغ التحدي ذروته، نتيجة ضغط قوى الاستكبار والاستبداد والتخلف والعتائية، فولادة "المنهج المعرفي الوظيفي" إيدان ببداية حركة التاريخ واستئناف الدور الحضاري والوعي بسنن الوقاية خاصة سنن الفهم والفقهاء، الوعي الذي يؤدي إلى البحث في السنن وتوسيع آفاق المعرفة بها، وفهم آليات عملها وأدائها لوظائفها التسخيرية، والدفع بارتفاع الميزانية التسخيرية.

3.المبحث الثاني: معادلة النهضة الحضارية وموقع الإنسان فيها.

إذا كانت الثقافة عند مالك هي نتاج التركيب بين عالم الأفكار وعالم الأشخاص وعالم الأشياء، فهي وعي في القلب ونضج في العقل، ويقظة في الضمير، واستقامة في السلوك، وإرهاق في المشاعر والأحاسيس، وحذق في الأشياء علما وعملا، وإذا كانت الحضارة هي نتاج التركيب بين الإنسان والتراب والوقت، فإن ما يحقق التركيبين هي الشرارة المتمثلة في "الدفعة القرآنية الحية"، لكن ما موقع الإنسان في

1 - برغوث، الطيب. (1425هـ-2004م). مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية، ط1. الجزائر، دار قرطبة للنشر والتوزيع، ص41-101.

المعادلة الحضارية؟ وكيف يمكن الانفلات من النمط الثقافي الغربي؟ واستعادة الدور الحضاري بهذه
الدفعة القرآنية، دون خسائر مادية ومعنوية؟

1,3. أصول الحضارة المعاصرة:

ميز مالك بن نبي في العالم بين ثلاثة جبهات؛ الجبهة الديمقراطية التي تتموقع استراتيجيا في أوروبا الغربية وأمريكا، والجبهة الاشتراكية التي مركز جاذبيتها المعسكر الشرقي، وجبهة السلام التي جمعت أركانها ذات يوم في (باندونج) بإندونيسيا⁽¹⁾، ويمكن أن نظيف بأن جبهة السلام التي كانت محل أطماع كلا القطبين، لم تعد اليوم ينظر إليها بهذه الصيغة، بل أصبحت تمثل عدوا ثقافيا بعد سقوط (موسكو)، فبالإضافة إلى ما خلفه الاستعمار من سلبيات، فإن الغزو الفكري لم يتوقف لحظة سعيا لمحو هذه الثقافة، ولهذا كان مفهوم الاستعمار مفهوما محوريا في البنية التحليلية لفلسفة مالك بن نبي، فقد يتخذ صورة عسكرية ظاهرة، كما قد يصبح شيطانا خفيا⁽²⁾، يختفي في ثنايا الأفكار والمخططات الواردة، إذن فالاستعمار قد يتخذ شكل القوة كما قد يتخذ صورة الفكرة.

وقد أدرك مالك بن نبي بكامل وعيه أن كل المخططات الاستعمارية تصب دائما ضد مفصل صمود الروح العربية؛ الإسلام، فإذا ما سقط هذا المفصل فلن يكون هناك ما يعوق عمل الاستعمار⁽³⁾، فمالك يعني ما يقول حين ميز بين الأسباب الصغرى والمسببات الكبرى، وحين حدد ذينك الفيروسين الذين ينهشان جسم الأمة الإسلامية؛ الفيروس الحاد الذي يعني به العلماني، والفيروس الخامل الذي يعني به الداعي للثقافة الأصل.

بما أن النمط الحضاري المعاصر يتجسد في الحضارة الغربية القائمة، فإن مالك بن نبي يطلق مسمى الاستعمار على ثقافة هذا النمط، وهذا ما يدعو إلى الوقوف أولا عند هذا المفهوم.

أ- مفهوم الاستعمار: لقد بين مالك بن نبي المبادئ الأساسية التي للتعريف وأدرك مقوماته⁽⁴⁾، إذ بالإضافة إلى أن مصطلح استعمار مأخوذ من عبارة مأصولة في الثقافة الإسلامية هي العمار، مما يجعلها مستساغة على مستويات أعمق من المستويات الشعورية، فإن مالك بن نبي بحث بحثا علميا في

1 - بن نبي، مالك. (إعادة 1423هـ-2002م). القضايا الكبرى، ط1 1991م. دمشق، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، ص93-94.

2 - بن نبي، مالك. (تصوير 1406هـ-1986م). الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دط. دمشق، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، ص29.

3 - بن نبي، مالك. (إعادة 1423هـ-2002م). من أجل التغيير، ط1:1995م. دمشق، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، ص74.

4 - بن نبي، مالك. (تصوير 1406هـ-1986م). مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، تصوير عن ط4: 1984م. دمشق، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، ص22.

مسألة الاستعمار، وفحص جذوره في أعماق التاريخ، وأدرك أنه أكبر نكسة في التاريخ الإنساني، إنه يتد إلى الحقبة التي وضعت المدنية الرومانية طابعها الاستدماري في سجل التاريخ⁽¹⁾، من هنا يمكن القول أن الاستدمار في أوسع معانيه -بحسب تحليلات مالك- هو سيطرة العقل المجرد.

فطبيعة الاستعمار وجذوره تتبع من ذلك العقل المجرد الذي انساق وراء الرغبات الحيوية ليكون خادما لها، ونظرا لغلبة الثقافة الغربية، فإن مالك بن نبي رأى أن تأثير هذا العقل، لم يستغرق فقط الإنسان العامي، بل استغرق أيضا المثقف، لهذا قال: "ولسوف تلاحظ أن الرجل-المثقف- يطلق عبارة (واقع)، لا على ما يراه مثلك بعينه، بل على ما يفكر فيه دون الرجوع إلى أي مقياس من التاريخ أو الاجتماع، فتكوينه العقلي يمنعه من أن يرى ما هو أمام عينه بلحمه وعظمه"⁽²⁾، فرسوخ فكرة العقل المجرد في عقل المسلم، هي تجسيد لفكرة الاستدمار في حد ذاتها.

ب- أصول الثقافة الغربية: لقد أدرك مالك بن نبي منذ الوهلة الأولى أن نهضة الحضارة الغربية كانت بالمسيحية، وليس كما يعتقد البعض أنها كانت ضد المسيحية، ثم بعد ذلك بدأ التلفيق بينها وبين أفكار الحرية واليهودية والبروتستانتية⁽³⁾، وقد بين، كيف تتبني الثقافة بالتركيب بين عناصر ثلاثة؛ الأفكار والأشخاص والأشياء، تركيبا تتعكس فيه الأفكار على الأشخاص فتشكل الهيكل الذهني الذي يعطي نمطا معيناً من العلاقات الاجتماعية، ونظرة فنية محددة اتجاه الأشياء.

لقد أعطى مالك بن نبي الأولوية في تحليله للعناصر النفسية، فالإنسان الغربي قبل عصر النهضة يصفه بوصفين في شكل عقدتين؛ "عقدة حماية الأجداد المهيمنة" و"عقدة الضياع"، وتتغلب هذه العقدة الأخيرة لأنها تتقبل أخطار اللاتبعية⁽⁴⁾، حيث قرأ مالك كتابا حول الاستعمار لـ(منوني)، قراءة نقدية تبيين من خلالها أن صاحب الكتاب انطلق من المعطيات الاجتماعية ثم درس انعكاساتها النفسية، بينما مالك ينطلق من المعطيات النفسية ويدرس انعكاساتها الاجتماعية.

فمن الناحية المبدئية هناك دوافع حيوية مادية منفعية كانت مصدر استقرار مؤقت، نتيجة الالتصاق بالأرض، هذا الاستقرار أوجد نشاطا لكنه لم يكن منظما، إلى أن جاء (ديكارت)، فنظم النشاط تنظيما علميا وذلك بوضعه لقواعد المنهج، فكان ذلك أساس تركيب عبقرية الإنسان مع التراب والوقت، فتحقق الاستقرار التام المغلق، لأن شخصية الإنسان الغربي لها خصائص جذبية فردية ذاتية، وهنا يحدد مالك تدخل المسيحية التي زودت هذا النشاط والاستقرار بالحركية عن طريق التبشير، مما أدى إلى ظهور فكرة

1 - مالك بن نبي، 2009م، ص 148.

2 - (ميلاد مجتمع، 2000م، ص 89).

3 - (مالك بن نبي، تصوير ط 4 1986م، ص 105).

4 - (مالك بن نبي، 1981م، ص 23).

التوسع، وقد جاءت الحروب الصليبية وكانت نقطة الالتقاء بالعالم الإسلامي، وقد أدركت الحضارة الغربية أهمية التراث الإسلامي وأبعاده، وجاءت مرحلة التصفية من كل الأبعاد الدينية، لتأخذ فقط ما يتساير وتلك المنطلقات المتعلقة بالضرورات الحيوية المادية⁽¹⁾، إذن فقد كان عقل الإنسان الغربي مجردا وتحكمه أوهام الهيمنة، أضاف إليه طاقة ظاهرة هي الارتباط بالوسائل، أي نقله من حالة القوة الخفية إلى حالة القوة الظاهرة⁽²⁾، وبكلمة جامعة كون (ديكارت) العقلية العلمية؛ لأن العلم كما قال مالك بن نبي: "يعطي القيم النفسية التي تولد الأشياء"⁽³⁾، ومن هنا يتضح أن مالك بن نبي قد أدرك بشكل واضح المبدأين الذين تقوم عليهما الحضارة الغربية؛ مبدأ العقلانية الذي رسمه (ديكارت) و مبدأ العلمانية أو الدنيوية الذي انحدر من صب الاهتمام على الضرورات الحيوية، ولهذا يؤكد مالك بن نبي على أنه: "يجب أن نتصور الاستعمار كما هو أي عقلية علمية مطبقة في المجال السياسي، طبقا للتفكير الديكارتي أن يلغي من حسابه مبدئيا احتمال الاستقلال"⁽⁴⁾، وقد أدرك مالك أيضا، في خلال المقارنة بين النمطين الحضاريين، أن الحضارة الغربية قد اهتمت بالدنيويات فقط، وأهملت الجانب الروحي فانفصل عقلها عن الغيب، وكان عقلا مجردا، وأدى هذا الانفصال إلى فصل العلم عن الأخلاق⁽⁵⁾، وتمخض عن الأصل الأول "العقل المجرد" أن أصبح الإنسان الغربي يفكر في عالم خالي من البشر⁽⁶⁾، وتمخض عن الأصل الثاني "فصل العلم عن الأخلاق"؛ أن كان الذوق عند الإنسان الغربي ذوق جمالي فقط، ووجد مالك في مشهد (عطيل) من مسرحية (شكسبير) دليلا⁽⁷⁾.

وبهذه المنطلقات بدأت تنتج الأفكار الاستعمارية، وبما أنها غير صحيحة في أساسها، فإنها أنتجت أفكارا غير صحيحة، وحتى اعتبارها أصولا -حسب مالك بن نبي- فهو أمر غير صحيح، لأن الفكرة الأصيلة تحتفظ بأصالتها أبد الدهر، فهي ذات طابع قدسي ومستقلة عن التاريخ، وقد بين مالك بن نبي أن كل الأفكار التي نتجت عن النمط الثقافي الغربي "العلم، التقدم، الحضارة" والتي حققت لها السيطرة على العالم، كان ذلك بفعاليتها لا بأصالتها، فأوروبا ترجح الفعالية على الأصالة في أسلوبها الاستعماري، كما بين أن هناك خلط بين الفكرة الأصيلة والفكرة الفعالة، فالفكرة الأصيلة هي فكرة صحيحة دائما

1 - (مالك بن نبي، تصوير ط 1981 عام 1986م، ص 34-35).

2 - (مالك بن نبي، في مهيب المعركة، ص 25).

3 - (مالك بن نبي، إعادة ط 1 2002م، ص 54).

4 - (مالك بن نبي، تصوير ط 2 1993م، ص 335).

5 - (مالك بن نبي، 2009م، ص 21).

6 - (مالك بن نبي، في مهيب المعركة، ص 27).

7 - (مالك بن نبي، تصوير 1986م، ص 53).

ومستقلة عن التاريخ، "تحتفظ بأصالتها حتى آخر الزمان"⁽¹⁾، حتى وإن فقدت فعاليتها في مرحلة معينة فإنها لا تموت، أما الفكرة غير الأصلية فهي فكرة خاطئة، وحتى لو خرجت إلى الواقع وكانت فعالة فإنها ستزول حتماً⁽²⁾.

بهذه المعايير التي يضعها مالك والتي هي أداة ضرورية للتمييز بين الأفكار الميتة والأفكار الفاتنة والأفكار الحية الأصلية، وصل إلى وضع المبادئ التي من خلالها يمكن للمسلم أن يبني فكرة صحيحة أصيلة وفي ذات الوقت فعالة.

وخلاصة القول فإن مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي، ينضبط بتحقيق التركيب المتناسق بين ثلاثة عناصر؛ الأفكار والأشخاص والأشياء، ومبادئ النمط الحضاري الغربي، مبدأ العقلانية، والمبدأ الحيوي الدنيوي، هي منابع الأفكار التي انبنت عليها هذه الحضارة، وهي تخالف تمام المخالفة الأصول التي تتبني عليها الثقافة الإسلامية، ولهذا كان تأثير النمط الغربي على الثقافة الإسلامية تأثيراً سلبياً نتيجة التعارض، وتسبب في أزمات.

2,3. أزمات النمط الحضاري المعاصر:

أدخل لقد تبين أن النمط الثقافي الغربي يقوم على مبدئين؛ العقلانية المجردة المفصولة تماماً عن الجانب الغيبي، والدنيوية التي تستخدم العلم والقائمة على المعاني الجمالية والمفصولة تماماً عن القيم الأخلاقية، هذين المبدئين الذين رأى مالك أنهما تسببا في وجود أزميتين؛ أزمة استغرقت المستوى الفكري، وأزمة استغرقت المستوى الأخلاقي⁽³⁾، الأزمة الأولى نتجت عن الأخذ بالعقل المجرد من الغيب، والأزمة الثانية نتجت عن الأخذ بالعلم المجرد من المعاني الأخلاقية، وتمخض عن هاتين الأزميتين الكثير من السلبيات.

وقد تبين أن هذين الأصلين تمخضا عن جانبيين أساسيين من جوانب الإنسان؛ الجانب العقلي، والجانب البيولوجي، فالعقل منذ البداية انفصل عن الروح، وعن الغيب، وأنتج العلم، والعلم أصبح خادماً للمقتضيات البيولوجية، فأبتعد عن الأخلاق، بينما المعادلة في تراثنا الإسلامي تقول: "لا إنسان بلا علم ولا علم بلا أخلاق ولا أخلاق بلا دين؛ إذن لا إنسان بلا دين"⁽⁴⁾، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:56)، باختلال هذه المعدلة كانت الأزمات الفكرية والأخلاقية.

1 - (مالك بن نبي، 2009، ص103).

2 - (طه عبد الرحمن، 1999م، ص129).

3 - (مالك بن نبي، تصوير ط1981 عام 1986م، 102-103).

4 - (طه عبد الرحمن، 1999م، ص129).

أ- الأزمات على المستوى الفكري: يميز مالك بن نبي بين أربعة أصناف من الأفكار؛ الأفكار الميتة والأفكار القاتلة والأفكار الأصيلة الحية والأفكار المخدولة⁽¹⁾، فالأفكار الميتة قد تكون نابعة من الأصول، لكنها فقدت فعاليتها نتيجة اختلاطها بأفكار غير أصيلة؛ مثل التصوف غير النقي، والأفكار القاتلة هي التي نبعث من مبادئ الثقافة الغربية، المناقضة تماما لأصول الثقافة الإسلامية؛ مثل العقلانية والعلمانية والحدائثة⁽²⁾، أما الأفكار الحية فهي الأفكار النابعة من الأصول الإسلامية، فهي أفكار صحيحة وفعالة إذا ما تم تطبيقها، أما إذا تم التخلي عنها، رأى مالك بن نبي أنها تنتقم لنفسها، وأطلق عليها في هذه الحالة مسمى الأفكار المخدولة، وإذ يهمننا في هذا البحث بخاصة الأفكار القاتلة التي هي جوهر وجود الأزمات، لأن الأفكار الحية الأصيلة إذا خذلت حل محلها الأفكار الميتة والأفكار القاتلة، وإذا أخفقت الأفكار فشلت كل محاولة ثقافية وهذا كما قال مالك: "إيدان عن أزمة حضارية، والأزمة تنمو حتى تصل إلى نقطة اللارجوع"⁽³⁾، إذن فبالإضافة عن الأفكار الحية تظهر أزمة الأفكار المخدولة⁽⁴⁾، وهنا بالذات تبدأ الأفكار الميتة والأفكار القاتلة في الدخول، وأول فكرة دخلت فعلا هي العقلانية، فكيف تسببت هذه العقلانية في أزمات الانفصال عن الغيب؟.

بين مالك بن نبي بكل وضوح مبادئ المذهب المادي الذي تتبني عليه الحضارة الغربية، وجوهر تأثير هذه المبادئ، محاولة تجزئة كل شيء وإرجاعه إلى المادة، فكان بذلك فكرا تجزيئيا⁽⁵⁾، وانتقال فكرة العقلانية أو العقل المجرد إلى العالم الإسلامي، أدى إلى ما أسماه مالك بن نبي: "النزعة الذرية" أو "قفزة البرغوث"⁽⁶⁾، فالحكم الذي هو أساس كل معرفة يفترض عمليات ذهنية تطلب الجمع والكلية، وتتعارض مع التجزئة والذرية، فالنزعة الذرية تجعل التفكير عاجزا عن ضم مجموعة من الأفكار في اطراد واحد طبقا لتسلسلها⁽⁷⁾، وهذا يؤدي إلى عجز العقل عن الحكم في أي مجال كان، فكل فكرة حية أراد الاستعمار أن يقتل فاعليتها، أو يجهضها، فإنه يعمل على تجزئتها ونقلها من المستوى التصويري إلى المستوى المجسد⁽⁸⁾، وعلى هذا الأساس ينتقد مالك المشروع القومي ومشاريع الحركات العقديّة، ويرى بضرورة بناء جهاز كامل للتحليل والنقد، ففشل هذه المحاولات ووقوعها في أزمات وتراجعها، يرجع في

1 - (مالك بن نبي، في مهبط المعركة، ص129-130).

2 - (مالك بن نبي، 2009م، ص154).

3 - (مالك بن نبي، تصوير ط1981 عام 1986م، ص91).

4 - (مالك بن نبي، 2009م، ص129).

5 - (مالك بن نبي، إعادة ط4 1987م عام 2000م، ص73).

6 - (مالك بن نبي، 2009م، ص128).

7 - (مالك بن نبي، تصوير 1986م، ص96).

8 - (مالك بن نبي، تصوير 1986م، ص101).

جوهره إلى عدم تماسك الأفكار، وإلى عدم توفر منظومة فكرية متماسكة متكاملة متناسقة، تحقق التوازن بين الأشياء والأشخاص والأفكار⁽¹⁾، وتمخضت عن هذه الأزمة أن وقع المسلم في مفارقة للواقع، فعمل بن خلدون والغزالي مثلا كان سابقا لأوانه، هذه المفارقة للواقع أدت بدورها إلى أزمة أخرى تمثلت في الازدواجية التي يعينها مالك بن نبي في الثنائية "مثالي واقعي"⁽²⁾، وهذا ما أدى بدوره إلى أزمة نفسية، لكن مالك لا يرى في هذه الازدواجية التعارض الشديد، لأن التعارض يظهر عند الكائنات التي تحيي حياة بيولوجية فقط: "فالتعارض الداخلي عند الكائن الحي، يؤدي إلى قمة نموه ثم إلى نهاية تحلله، إلا أنه في المجال الاجتماعي، هذه الحتمية محدودة لأن اتجاه التطور وأجله يخضعان لعوامل نفسية زمنية، فبتعديل هذه العوامل يستمر النمو"⁽³⁾، ووجد مالك في تعارض روح القرآن وروح الجاهلية مثالا: "فمنذ ذلك الانفصال الأول -حادثة صفين- فقد العالم الإسلامي توازنه الأولي، على الرغم من بقاء الفرد المسلم متمسكا في قرارة نفسه بعقيدته التي ينبض بها قلبه المؤمن"⁽⁴⁾، إذن فالمفارقة هذه أدت إلى فقدان حالة نفسية، هي نقصان درجة الإيمان وفقدان فاعليته في الحياة الواقعية، وذلك لانفصال العقل عن الغيب، فالأزمة ليست أزمة اعتقاد بقدر ما هي أزمة فعالية الاعتقاد، ليست أزمة إيمان وإنما هي أزمة فعالية الإيمان.

ولم تقف الأزمة عند هذا الحد بل انعكست على اللغة؛ فبتجزئة الفكر وانفصاله عن الواقع، حدثت بليلة لغوية انعكست سلبا على المجتمع ففرقتة، لعدم وفاء اللغة بوظائفها المعروفة⁽⁵⁾، فالقعود والانبهار بالنمط الحضاري الغربي، لاشك كما قال مالك بن نبي: "أن يحتم على العرب أن يقوموا بالقفزة ذاتها التي حدثت منذ ثلاثة عشر قرنا لكي يترجموا الفكر العلمي وحتى الفكر السياسي"⁽⁶⁾، لكن التفكير الذري أعاق هذه العملية، وبدل الاستفادة منها أصبحت هي الأخرى أزمة؛ "أزمة الترجمة"، انعكست سلبا على اللغة والفكر معا، رغم أن الترجمة تمنح التعريب بعدا تاريخيا إذا قامت على أصول سليمة، وقد تمثلت أزمة الترجمة في التأثير السلبي للثقافة المترجمة؛ سواء بمناهجها العقلية أو بنتائجها العلمية، لأن تجزئة هذه المناهج، وجمود اللغة على المصطلحات المنقولة لها تأثيرات سلبية على مستويات مختلفة، قد تصل حتى إلى درجة التأثير الأيديولوجي⁽⁷⁾، كما أدت أزمة الترجمة إلى نقل الأزمات النفسية التي يعاني منها

1 - (مالك بن نبي، 2009م، ص 77-78).

2 - (مالك بن نبي، تصوير 1993م، ص 237).

3 - (مالك بن نبي، تصوير ط 1981م عام 1986م، ص 24).

4 - (مالك بن نبي، ص 25).

5 - (مالك بن نبي، 2009م، ص 137).

6 - (مالك بن نبي، إعادة ط 2002م، ص 62).

7 - (مالك بن نبي، تصوير ط 1993م، ص 267).

أصحاب هذا النمط الحضاري ذاته⁽¹⁾، كما أن تلك الثنائية "مثالي واقعي" وقعت في أزمة أخرى، تمثلت في الحرفية والتكرار والجدل، فالمثالي يمجّد الأسلاف دون أن يحقق فعاليتهم، والواقعي يتباهى بالنمط الثقافي الغربي ويتزلق على مصطلحاته دون أن يدرك ماهية هذا التراث، ودون أن يحقق فاعلية الإنسان الغربي، وبهذا وصف مالك بن نبي النهضة الإسلامية بقوله: "ظل بعث النهضة الإسلامية دهرا طويلا، حبيسا في مجال آخر، تحكمت فيه الميول الطبيعية لدى إنسان ما بعد الموحدين، وهو إنسان لا يكثرث بالفاعلية، كما تحكمت فيه المساوىء الخاصة بالمؤسسات الثقافية وقد أخطأت منذ بعيد هدفها الاجتماعي"⁽²⁾، هذه الميول هي الجدل والحرفية؛ إذ لم يكن المتجادلون يبحثون عن حقائق وإنما عن براهين، والجدل كما رأى مالك بن نبي؛ من أضر الأمور على كيان الأمة، لأنه يشككها في دينها ويسبب لها الفرقة والتناذب في أجزائها، إذ لا يقدرّون الأمور على وجهها الصحيح ولا يسعون إلى البناء ذلك لوقوعهم في الحرفية: "فالغرام بالكلمات أعظم من الغرام بالمعدن والرخام والحجر، فهو يؤدي أولا وقبل كل شيء إلى أن يفقد الإنسان حاسة تقدير الأمور على وجهها الصحيح، وهو أمر لازم لكل جهد إيجابي من أجل البناء"⁽³⁾، وهنا كان مبرر مالك في إمكانية تطويع اللغة كما تبين.

كما أدت التجزئة إلى فقدان المنهج، فلقد بقيت المناهج على حالها منذ القرن المسيحي الوسيط، وإن دخلت مناهج حديثة، فهي دخلت بشكل مجزأ، مما تسبب - كما تبين - في انفصال الفكر عن الواقع، أو عدم فهم دور العلم في الواقع، لهذا يصف مالك بن نبي المتعالم والعالم: "أن يصبح المرء بحر علم يزدرد العلم ويفقد دوره الاجتماعي"⁽⁴⁾، عند كلا الطرفين المثالي والواقعي، فالأزمة أزمة فاعلية، أزمة تجربة: "إذًا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن الإنسان سكن المجتمع والتاريخ"⁽⁵⁾، فالمثالي الذي يتجه إلى امتداح الماضي، أصبحت ثقافته أثرية، لا يتجه عمله الفكري إلى الأمام بل ينتكس إلى الوراء وهي ظاهرة التشبث بالماضي. أما الواقعي فقد وقع في سلبية التعلق الواهم بالكم⁽⁶⁾، لكن الواقعي المسلم في حقيقته واقعي ظاهري، وتعلقه بالكم ليس نابع من ذاته، وإنما من خارج، وبهذا فقد فاعليته. ومجمل القول أن هذه الأزمات أزمة واحدة هي أزمة القصد، فتجريد عقل المسلم عن الغيبات بإرادته أو بغيرها،

1 - (مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص111-112).

2 - (مالك بن نبي، تصوير ط1981م عام 1986م، ص52).

3 - (مالك بن نبي).

4 - (مالك بن نبي، ص53).

5 - (مالك بن نبي، 1991م، ص129).

6 - (مالك بن نبي، تصوير ط1981م عام 1986م، ص53).

أدى به إلى الخطأ في المقاصد⁽¹⁾، والمغالاة والغموض والإبهام، وعدم الدقة والتقليد والافتتان بأشياء الغرب⁽²⁾.

ب- الأزمات على المستوى الأخلاقي: المشكلة الأخلاقية كما يراها مالك بن نبي، لم تكن وليدة النمط الحضاري الغربي المعاصر وحده، وإنما هي حالة مرضية ترجع امتداداتها إلى نقطة الانكسار الأولى فيما يسميه مالك: "التركيب الأساسي"⁽³⁾، حيث حدث انقلاب في المنظومة الحضارية للقيم الإسلامية، وهذا برجع الحنين للمعتقدات السابقة للإسلام، فتوقفت التجربة الإيمانية، وتوقفت معها الهمة المحضرة للإنسان، فتحللت الحياة الاجتماعية وزال الحضر وحل محله البدو، فالمشكلة الأخلاقية إذن هي الأخرى ترتبط ارتباطاً أساسياً بفعالية الإيمان (الدفعة القرآنية).

أما النمط الحضاري الغربي المعاصر أو الاستدمار، فمفاهيمه كلها موجهة نحو الدنيويات ونحو المادة، وتطلق العنان لغرائز الإنسان ووظائفه الحيوية، دون إدخال الجانب الروحي، وبالتالي دون مراعاة للفضائل الأخلاقية⁽⁴⁾، ولهذا كان جانب الطاقة الحيوية عندها جانب مهم في البناء، ومفاهيمها لا تخرج عن هذا الإطار، واحترام علاقة هذه الأفكار بالمقاييس الثابتة للنشاط، والتي يحددها مالك في ثلاثة: "المرتبة الأخلاقية الأيديولوجية السياسية بالنسبة لعالم الأشخاص، والمرتبة المنطقية الفلسفية العلمية بالنسبة لعالم الأفكار، والمرتبة التقنية الاقتصادية الاجتماعية بالنسبة لعالم الأشياء"⁽⁵⁾، ومن هنا فما يحل بعالم الأفكار ينعكس على عالم الأشخاص، وينعكس أيضاً على عالم الأشياء، وإذا تقرر عند مالك بأن الفرد إذا فقد صلته بالمجال الحيوي مات موتاً مادياً، وإذا فقد صلته بالمجال الثقافي مات موتاً ثقافياً، فإنه يمكن القول بالقياس إذا فقد الإنسان صلته بالدين مات من جميع النواحي، أو قل دينياً، وموت الإنسان دينياً يعني انسحاب الإيمان إلى ساحة اللاوعي، وإعادة فعاليته لا بد أن يمر بمرحلة التجربة التي تكون بالاستغراق في العمل الشرعي⁽⁶⁾، إذن لا بد أن يتمحور الفكر الإسلامي كله على نقطة واحدة هي "هي الدفعة القرآنية الحية"، هذه فكرة دقيقة جداً يجب الالتفات إليها بل صب الاهتمام كله حولها. ففقدان الصلة بالدين كما قال مالك يعني: "أن المجتمع (...) يصبح ميتاً"⁽⁷⁾، وحكم الميت معروف عند الجميع.

1 - (مالك بن نبي، 2009م، ص103).

2 - (مالك بن نبي، ص24).

3 - (مالك بن نبي، تصوير ط1981م عام 1986م، ص30).

4 - (مالك بن نبي، 2009، ص24).

5 - (مالك بن نبي، ص64).

6 - (مالك بن نبي، تصوير 1986م، ص22).

7 - (مالك بن نبي، ص50).

وانقلاب القيم، أدى إلى اضطراب القوى الحيوية، هذا الاضطراب هو الذي تسبب في القابلية للاستعمار، بينما المسلم لم يهتم بهذا الجانب بقدر اهتمامه بالاستعمار، إذ الأجدر أن لا يرد على الثقافة الغربية حتى يعدل هذه الطاقات الحيوية، ويزيل القابلية للاستعمار من نفسه: "قالقران الكريم قد طوع الطاقة الحيوية للمجتمع الجاهلي حتى يدخله إلى طور الحضارة"⁽¹⁾، ومن هنا يمكن القول أن التجربة الإيمانية هي التي تؤدي إلى عودة الظاهرة القرآنية لتطوع من جديد هذه الطاقات الحيوية وتكيفها حتى تنتج مجتمعا متحضرا؛ مثل المجتمع الإسلامي في عهد الرسول ﷺ، فالتجربة الإيمانية هي التي ستكيف القوى البيولوجية للإنسان حتى يضعها في خدمة التاريخ، وبناء الحضارة، ومن هنا يتبين كيف حدد مالك بن نبي الأزمات الأخلاقية؛ فالأزمات الأخلاقية يعينها بحسب اختلال المستويات الحيوية، (التناسل، التملك (...))، هذا الاختلال الذي تسبب في وجود التراكم المعرفي واضطراب المنظومات الفكرية ولا فعالية المنظومات الاعتقادية، لقد حقق الاستعمار نوع من اليقظة ليجد المسلم نفسه أمام ضرورتين؛ ضرورة نابعة من الإسلام هي الحفاظ على الكرامة، وضرورة نابعة من الاستعمار هي حفظ الحياة والعيش، وعلى غرار هاتين الضرورتين نشأ تيارين فكريين: "تيار الإصلاح الذي ارتبط بالضمير المسلم، وتيار التجديد وهو أقل عمقا وأكثر سطحية"⁽²⁾، ومهما يكن الأمر فقد بين مالك أن الأزمات الأخلاقية منبعها اضطراب القوى الحيوية، نتيجة فقدان الروح صلتها بالدين، ولهذا فإن كل فكرة ثورية أو إصلاحية أو تجديدية يجب أن تتجه إلى الأخلاق لا إلى القوة⁽³⁾.

والأزمات الأخلاقية كثيرة، فالنفاق والرياء وأزمة حب الظهور التي وجد لها مالك أصلا في الأدب الفرنسي⁽⁴⁾، وأزمة التعالي عن المهمات المتواضعة، وفي صدد حديثه عن المنطق العملي تبين له ذلك الطابع التجريدي في عقل المسلم، والذي أدرك من خلاله سبب فقدان المنطق العملي⁽⁵⁾، فأكتشف أخطر أزمة أخلاقية، قد تصيب الشعوب، إنها داء الكلام للتفتيس عما في النفس⁽⁶⁾، إن حضارة المجتمع الإسلامي أصبحت حضارة قول، فالمسلم يتكلم بمبادئ القرآن ولا يعيش طبقا لها⁽⁷⁾، فالإنسان الذي يريده مالك، ليس هو الإنسان المتعالم، لأنه أجهل من الجاهل إنه يعبر عن هذا الواقع بقوله: "إذ لو طلب مني في تلك الفترة أن أدخل لتعليم الحروف في حفرة إسطلب تجمع فيها أبوال الحمير، لدخلت فرارا من الواقع

1 - (مالك بن نبي، 2009م، ص52).

2 - (مالك بن نبي).

3 - (مالك بن نبي، إعادة ط2 عام 2001م، ص22-23).

4 - (مالك بن نبي، تصوير 1993م، 234).

5 - (مالك بن نبي، تصوير ط4 عام 1986م، ص86).

6 - (مالك بن نبي، تصوير 1993م، ص390).

7 - (مالك بن نبي، 2009م، ص87).

الميرير⁽¹⁾، ومهما كان الأمر فقد أدرك سر التماسك في المجتمع الإسلامي، الذي هو الأخلاق: "هذه القوة موجودة في الإسلام لكن في تجربة منذ ألف عام"⁽²⁾، إنها "الدفعة القرآنية الحية"، إذن فالأزمات هذه ناتجة كلها عن فقدان عنصر الصدق.

وخلاصة القول؛ فإن مالك بن نبي اعتبر أحداث التاريخ، وأدرك المركبات الأساسية للثقافة والحضارة؛ فالأفكار والأشخاص والأشياء التي هي عناصر الثقافة، والإنسان والتراب والوقت التي هي عناصر الحضارة، يجب أن تتراكم وتتسجم حتى تكون هناك ثقافة وتكون هناك حضارة ويكون هناك تاريخ، فالفكرة الحية الأصلية تؤدي إلى بناء الإنسان، فتنتج عن هذا البناء القيم التي تضبط العلاقة بين الأشخاص وتمنح معنى للوقت، فينعكس ذلك على التراب والأشياء، فتكون الحضارة ويتعين مسار التاريخ، أما إذا خذلت الفكرة الحية الأصلية كانت نقطة الانكسار في منحى التطور التاريخي: "وهي لحظة انقلاب القيم داخل حضارة معينة"⁽³⁾، وبما أن الضمير الإنساني في القرن الواحد والعشرين لم يعد يتكون في إطار الوطن والإقليم، إنما يتكون في ضوء الحوادث العالمية التي لا يستطيع أن يتخلص من تبعاتها، فإن مصير أي جماعة إنسانية يتحدد جزء منه خارج حدوده الجغرافية، فالثقافة التي تعكس المنظومة القيمية أصبحت تتحدد أخلاقيا وتاريخيا داخل تخطيط عالمي، ولهذا رأى مالك أن البحث عن منظومات قيمية هو أمر لا طائل منه⁽⁴⁾، ومحاولة استخدام القوة في صد هذا التخطيط أيضا أمر لا طائل منه، وإنما يرى أنه لا بد من البحث عن العوامل الإنسانية المتمثلة في عجز الناس عن تطبيق مواهبهم الخاصة على التراب والوقت، لا بد من إحياء الهمة والفاعلية في هذا الإنسان حتى يدفع مسار التاريخ، ولا يتحقق ذلك إلا بالتدرج في منازل الدفعة القرآنية الحية التي تحقق التركيب المنسجم بين عناصر الثقافة، فتتصهر النزعتين؛ دعاة الثقافة الأصلية ودعاة الثقافة الغربية، في "السلام العالمي"⁽⁵⁾.

وقد حمل النخبة الأفريقية المسؤولية: "ولا شك أن النخبة الأفريقية ستجد نفسها حيال هذه الحالة - الأزمة الأخلاقية العالمية-، التي سببتها أوروبا والتي تطلب منها قسطا أوفر من الصفات الأخلاقية (...). فبقدر ما ترتفع بالجماهير إلى مستوى الحضارة، فإنها ترتفع بالضمير الأوروبي إلى مستوى الإنسانية، لتضع أمامه صورة صحيحة عن الرجل الذي يعده الاستعمار شيئا تافها، فكلما تحضر الإنسان الأفريقي سوف يعطي للأوروبي فكرة أصح عن العالم الإنساني (...). إن العالم مثقل بالعلم وبتقافة الإمبراطورية

1 - (مالك بن نبي، تصوير 1993م، ص395).

2 - (مالك بن نبي، تصوير ط4 1986م، ص81).

3 - (مالك بن نبي، تصوير ط1981 عام 1986م، ص31).

4 - (عمر كامل مسقاوي، 1986م، ص15).

5 - (مالك بن نبي، تصوير ط4 عام 1986م، ص122).

(...) ومن ثم فما ينبغي أن تقدمه الثقافة الأفريقية لخدمة السلام هو الضمير وليس العلم⁽¹⁾، والنقطة المهمة أن مالك رأى أن المجتمع الأفريقي مجتمع لا ثقافي رغم ذلك الركاب وتلك التكدسات، وهذا ما يتيح الفرصة لبناء ثقافة تتمتع بالأصالة والعالمية معا.

إذن فمالك بن نبي قد برهن استنادا إلى منهج التحليل النفسي بأنه لا سبيل إلى قيام ثقافة عربية دون أن تستند إلى أساس إسلامي، بل إلى فكرة إسلامية حية، هي الدفعة القرآنية، نقطة البداية التي تعيد التاريخ إلى مساره وتحقق التركيب الحضاري، ولم يقف عند هذا الحد، بل يرى في قيام الثقافة الأفريقية الحل في إنقاذ الإنسانية، لكن السؤال المطروح ما محل المحاولات التجديدية واليقظات العقديّة والتيارات الفكرية؟.

ج- خطأ المحاولات التجديدية والإصلاحية: لقد تبين من خلال عرض أصول النمط الحضاري

الغربي، أنه يقوم على الدنيوية التي تهدف إلى خدمة الضرورات الحيوية، مع ترك الضرورات الروحية، كما تبينت نشأة ذينك التيارين الإصلاحية، والتجديدي.

بين مالك بن نبي أن لهذين التيارين إيجابيات كما لهما سلبيات؛ "قالتيار الأول الذي خط طريقه في الضمير المسلم منذ عصر بن تيميه"⁽²⁾، قد حقق انطلاقة إيجابية ودفعة قوية للتاريخ الإسلامي، لكن تلاشت هذه الدفعة لما فقدت الفكرة فاعليتها، فقد أنتج الفكر التيمي الدولة التيمورية الموحدية، ودولة الوهابيين في الشرق، لكن جمال الدين الأفغاني وبالرغم من أنه الضمير الذي عكس الحركة الوهابية لدى العالم الإسلامي الحديث، إلا أن حادثة السييبي والإفلاس الروحي قاداه إلى أن يبني حركته الإصلاحية على نظام المآخاة وهدم الحركات المادية وفكرة الضرورات الحيوية، فلم يتحقق له التركيب بين الأفكار والأشخاص والأشياء، لأنه أهمل عنصر الأشياء، "وهكذا انتصر أحد الأبطال إما الفكرة وحدها أو الشخص وحده"⁽³⁾ وأستمر انتصار أحد الأبطال دون أن يتحقق التركيب، حين تغيرت حركة الإصلاح في مصر على يد رشيد رضا، إذ بدل أن يهتم بالمشكلات التي أدت إلى فقد الهمة المحضرة للمسلم وفقد الفعالية، ويسعى إلى إيجاد الفكرة النقطة التي تعيد التاريخ إلى مساره، سعى إلى وضع أساس أخلاقي لحياة المسلمين، فكان الانتصار هذه المرة لعالم الأشخاص وحده⁽⁴⁾، وهكذا وجد مالك بن نبي تفسيراً لظاهرة الهروب إلى التصوف⁽⁵⁾.

1 - (مالك بن نبي، ص 125-127).

2 - (مالك بن نبي، إعادة ط 1981 عام 1986م، ص 43).

3 - (مالك بن نبي، 2009م، ص 85).

4 - (مالك بن نبي، إعادة ط 1981 عام 1986م، ص 35)، (مالك بن نبي، 2009م، ص 96-98).

5 - (مالك بن نبي، تصوير 1993م، ص 299).

أما التيار الثاني؛ الذي يقوم على الضرورات الحيوية، أو التيار الواقعي أو ما يسميه أحيانا بالتيار التقدمي، رأى مالك بن نبي أنه أخطأ هدفه منذ الوهلة الأولى، لأنه تخلى عن الأصول ووقع في التشكيك، وأصبح يخدم الاستعمار أكثر مما يخدم الإسلام. إلا أن مالك وجد في المحاولة التجديدية لإقبال بعض الحياة، هذه المحاولة التي استطاع من خلالها أن يتجاوز الأفكار الميتة⁽¹⁾، لأنه أدرك تمام الإدراك أن أزمة الغرب هي أزمة العالم الإسلامي؛ لأن كلاهما يعاني من أزمة سيطرة الشيء، فالغرب الذي قام على التجربة العلمية الفلسفية وحدها، أخطأ هدفه ووقع في التيه لعدم توفر سند لهذه التجربة، والعالم الإسلامي الذي أصبح يقوم على الإيمان وحده، ويستقبل أشياء الغرب ومعارفه ومناهجه كما هي؛ قاتلة أو ميتة، دون أن يتجسد في الواقع بالتجربة، ودون أن يكون له الذوق الجمالي لأشياء الغرب، وقع في التيه وسيطر عليه الشيء؛ فتكدسات النمط الحضاري الغربي التي تولت السنون ترسيخها في عقل المسلم، سحبت الإيمان من دائرة الوعي إلى ساحة اللاوعي، فغابت فعاليته في الواقع، لهذا أدرك إقبال ضرورة إقامة التجربة الدينية، إلا أنه أدرك أن هذه الفكرة ليس فيها من الحياة ما يكفي لاستئناف حركة التاريخ. ولهذا فخطأ المحاولات التجديدية الفكرية كان في انقيادها وراء العقل المجرد، واهتمامها بعالم الشيء، أما خطأ المحاولات الإصلاحية فتتم في عدم الانطلاق من فكرة حية، تحقق فعالية الإيمان مثل التي تنغيها "الدفعة القرآنية الحية"، لأن الاستغراق في ممارسة الأعمال الشرعية، يؤدي إلى إحياء فعالية الإيمان، وحين يتقوى الإيمان ينبثق إشعاع الروح، فيتولد معه إشعاع العقل، فتعود الهمة للإنسان، فيصبح متعطشا للفهم، ومريدا للعمل، وينعكس هذا حتى على خلقته، إذ يصبح جميلا⁽²⁾، لكن كيف يتحقق استئناف الدور الحضاري بالدفعة القرآنية الحية؟

هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول.

4. المبحث الثالث: مدارج الدفعة القرآنية الحية وصناعة الإنسان الذي يستأنف الدور الحضاري

تبدأ الدفعة القرآنية بالدخول في التجربة الإسلامية، ثم التجربة الإيمانية فالى التجربة الإحسانية التي ترفع الإنسان إلى مرتبة الرجل الأمة الذي يؤدي إلى ميلاد مجتمع يستأنف الدور الحضاري ويعيد توجيه حركة التاريخ، فما هي هذه المدارج والمراتب؟ وكيف يمكن تحقيقها؟

1 - (مالك بن نبي، ص 150).

2 - (مالك بن نبي، إعادة ط 3 عام 2000م، ص 80).

1,4. التجربة الإسلامية ومرتبة الرجولة والمروءة:

الرجولة في اللغة العربية هي صفة، يبلغها الإنسان حين تصل ذكورته إلى أقصى شدتها وكمالها⁽¹⁾، والأنثى تتدرج في مراتب النسوة، إذا تزوجت وبدأ حملها⁽²⁾، وقد تناول طه عبد الرحمن -حفظه الله- أربع مصطلحات لتأسيس النظرة الأخلاقية للهوية البشرية، واعتبرها متدرجة تدرجا تراتبيا من الأسفل إلى الأعلى، وهي؛ الإنسانية والرجولية والمروءة والفتوة، وتبين له أن لكل مصطلح معنيين حسي ومعنوي (أخلاقي)، فالمعنى الحسي للإنسانية هو "الصورة الآدمية" والمعنى الحسي للرجولة والمروءة هو "الكائن البشري الذكر البالغ"، والفتوة تعني "الكائن البشري الشاب الحدث"، أما المعنى المعنوي للإنسانية فهو "الكائن ذو الأخلاق" والرجولة هي "الكائن الذي ارتقت أخلاقه درجات" والفتوة تعني "الذي زاد في الارتقاء الخلفي درجات على الرجولة"، وكأن المرءة أكمل من الرجولة والرجولة أكمل من الإنسانية، أما الفتوة فهي أعلاهم مرتبة لأنها تمتاز عن الإنسانية بكمال التدين وتمتاز عن الرجولية بكمال القوة وتمتاز عن المرءة بكمال العمل⁽³⁾ أما مرتبة الرجل الأمة فلم ترد عند طه عبد الرحمن.

وتتبع عصام العبد لفظ "الرجولة" في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ووجد أنه ورد بصيغ متعددة وكان في القرآن المكي أكثر منه في القرآن المدني، وأرجع ذلك إلى أن القرآن المكي يعالج قضايا العقيدة وتصحيح تصورات الناس، أما القرآن المدني فهو يخاطب مجتمع قد استقر عقديا وشرع في البناء الحضاري⁽⁴⁾.

وبما أن الإنسان تحكمه ثلاث قوى أساسية؛ القوة الجسمية التي تتضمن الغرائز والقوة الفكرية التي تنتظم بالتعقل والقوة الروحية والوجدانية والنفسية التي تنتظم بالعقائد والأعمال، فإن الرجوع إلى الفطرة السليمة يقتضي تهذيب الغرائز بواسطة التدين لتتشكل الصورة الإنسانية أو صورة "إنسان الفطرة" وبداية الانطلاق للتدرج في المراتب العليا بداية بالرجولة، حيث تنشط القوة العقلية وتنتقل من خدمة الغرائز بعد أن كانت مجردة من الوحي -الضمير هنا يعود على القوة العقلية- إلى الارتباط بالقلب والبصيرة فيعجز العقل عن الإدراك ويكتشف حدوده فيساهم في نمو القوة الروحية، فتلتحم هذه القوى الثلاثة مشكلة مرتبة أخلاقية تسمى الرجولة، ويكون ذلك بواسطة اللغة وتعليم الأسماء، فالعلاقة بين اللغة وقوة الغريزة علاقة عكسية؛ إذ كلما تجاوزت الغريزة حدودها كلما ضعفت اللغة فضعف الوازع الديني، والعكس صحيح.

1 - (محمد ابن منظور، دت، ص1596).

2 - (ابن منظور، ص4403).

3 - (طه عبد الرحمن، 2002م، ص173-183).

4 - (عصام العبد، 2010م، ص181-185).

إذن فإنسان الفطرة قوة يُحتمل أن تتخذ مسارين؛ إما مسار أخلاقي معنوي نحو الرجولة، وإما مسار مادي غريزي، لهذا تتبأ الملائكة عليهم السلام بأن آدم ﷺ سيفسد في الأرض ويسفك الدماء قبل أن يعلمه الله سبحانه وتعالى الأسماء، فبداية الرجولة إذن تكون باستعادة الفطرة السليمة عن طريق اللغة العربية، وتطبيق أركان الإسلام⁽¹⁾، وإلا أصبح الإنسان كالأنعام أو أضل سبيلا، فتهديب الغريزة شيء أساسي حتى لإعادة بناء المجتمعات.

والمروءة في العربية مشتقة من الفعل الثلاثي المجرّد "مَرَأً" على وزن فعل والذي يعني: تطيّب وأصبح خفيفا وهنيئا ومحمود المغبة⁽²⁾، "والمروءة: كمال الرجولة، فيقال: تمرأ الرجل، أصبح ذو مروءة، (...)" والمروءة الإنسانية⁽³⁾، والمَرءُ: الرجل مقابل، المرأة التي هي تأنيث للمرء⁽⁴⁾، وكما أن تحقيق مرتبة الرجولية مرتبط باللغة العربية والزيادة في التدين، فإن مرتبة المروءة كذلك، كتب عمر بن الخطاب لأبي موسى: "خذ الناس بالعربية فإنه يزيد في العقل ويثبت المروءة"⁽⁵⁾، فالمروءة صورة نفسية⁽⁶⁾ يصل إليها الإنسان، بأفعال يحصلها من الزيادة في تحصيل اللغة العربية والزيادة في التدين حتى يصل إلى درجة العفة والحرقّة، وموافقة الظاهر للباطن.

أما في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فتوجد صور كثيرة مضمرة للمروءة وأفعال جليّة تبين كيفية صناعتها، بل أن القرآن-والسنة بالطبع- كله يدعو بتدرج دقيق وعجيب، إلى بلوغ الخلق العظيم، خلق المصطفى ﷺ، وقد ورد لفظ "المرء" في ثلاثة مواضع؛ قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا﴾ (البقرة:102) وقوله أيضا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال:24) وقوله أيضا: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ (النبا:40)، هذه الآيات الثلاثة تعكس ثلاثة صور رهيبية تستوجب اليقظة الدائمة، لأنها تضع شرطين أساسيين لتحقيق المروءة، الأول: هو الزوجة الصالحة لتحقيق "المجتمع العظيم"، والثاني: علاقة الرجل بقلبه⁽⁷⁾، لتحقيق "الإيمان العظيم"، وهذه الصور الثلاثة هي؛ الأولى: "إظهار الأمر في أقبح صورة (...)" أن يتمكن السحرة

1 - (مالك بن نبي، إعادة ط4 عام 2000م، ص67).

2 - (ابن منظور، ص4166).

3 - (ابن منظور، ص4165).

4 - (ابن منظور، ص4166).

5 - (ابن منظور، ص4166).

6 - (الفيومي، دت، ص217).

7 - (محمد جمال الدين القاسمي، 1376هـ، ص2974-2976).

من التفريق بين أعظم مجتمع كالمرء وزوجته⁽¹⁾، والثانية: تبيين ضرورة الاستجابة لدعوة الله ورسوله ﷺ لأن الله تعالى هو الذي يحدد حياة القلب أو موته "وإنها لصورة تهز القلب ويجد لها المؤمن رجفة في كيانه حين يخلو إليها لحظات، ناظرا إلى قلبه الذي بين جنبيه، وهو في قبضة القاهر الجبار"⁽²⁾، والثالثة وردت كنتيجة حين ينظر المرء جزاءه في الدار الآخرة⁽³⁾، ويستثني الكافر عن هذه الخاصة وهي "المرء"، وما قيل في القرآن الكريم ينطبق على السنة النبوية الشريفة، وكيف لا وهي شارحة ومفصلة له، وحسبنا تلك الصورة التي جاء فيها المصطفى ﷺ إلى خديجة، وقد اشتد به الروح وخشي على نفسه، من أثر نزول الوحي الكريم لأول مرة وبأول كلمات من القرآن الكريم ﴿أَفْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، أَفْرَأَ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: 1-5)، فقالت له خديجة - الزوجة الصالحة-: "كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق"⁽⁴⁾.

ينطلق ابن قيم الجوزية من المفهوم اللغوي، فيعتبر "المروءة" فعولة من لفظ المرء، كالفتوة من الفتى، والإنسانية من الإنسان⁽⁵⁾ ويلج من خلاله إلى توليد الدلالات ليصل إلى حقيقتها، بعد فهم حقيقة النفس البشرية التي تنطوي على ثلاثة دواع متجاذبة "داع يدعوها للاتصاف بأخلاق الشيطان: من الكبر والحسد والعلو والبغي والشر والأذى والفساد والغش، وداعي يدعوها إلى أخلاق الحيوان وهو داعي الشهوة، وداع يدعوها إلى أخلاق الملك: من الإحسان والنصح والبر والعلم والطاعة"⁽⁶⁾، فالمروءة عنده "هي اتصاف النفس بصفات الإنسان الذي فارق بها الحيوان البهيم، والشيطان الرجيم وأجاب الداعي الثالث فغلب عقله شهوته، وقلة المروءة وعدمها: هو الاسترسال في ذنوبك الداعيين (داعي الشيطان والحيوان) والتوجه لدعوتها أين كانت"⁽⁷⁾، واعتبر المروءة أنواع؛ مروءة اللسان، ومروءة الخلق، ومروءة المال ومروءة الجاه الجاه ومروءة الإحسان، وأما مروءة الترك فهي على ثلاثة درجات؛ مروءة المرء مع نفسه، ومع الخلق، ومع الحق سبحانه وتعالى⁽⁸⁾.

1 - (القاسمي، ص210).

2 - (سيد قطب، 2003م، ص1495).

3 - (سيد قطب، 2003م، ص1495).

4 - (محمد البخاري، 1423هـ، باب3، رقم3، ص8).

5 - (ابن قيم الجوزية، 1423هـ، ص334).

6 - (ابن قيم الجوزية).

7 - (ابن قيم الجوزية).

8 - (ابن قيم الجوزية، ص334-335).

وإذا كانت الرجولة هي كمال الذكورة وإنسان الفطرة -بعد التوبة واليقظة-، وكانت المروءة هي كمال الرجولة، فإن هناك تدرج عجيب ومنازل ينزلها الإنسان الذي تاب واستيقظ ودخل طريق الإسلام، حددها عبد الله الأنصاري الهروي في كتابه "منازل السائرين"، وهي مائة: تبدأ باليقظة والتوبة وتنتهي بالتوحيد وبلوغ مرتبة الإحسان والخلق العظيم وصورة الرجل الأمة⁽¹⁾، وسلك طريقها الغزالي أبو حامد في إحياء علوم الدين، وابن تيمية في مشروعه لإعادة بناء الأمة، وأعاد صياغتها ابن قيم الجوزية في اثنتان وستين مدرجا في كتابه "مدارج السالكين"، تعكس أربعة صور: الرجولة والمروءة والفتوة والرجل الأمة، ومن لم يسر في طريق الإسلام سار في الطريق المعاكس (اليهود أو النصارى أو المجوس أو الذين أشركوا)، وراح ينزل في دركات الأخلاق الذميمة وهي: "الجهل والظلم والشهوة والغضب"⁽²⁾، فالأخلاق الذميمة يولد بعضها بعضا كما أن الأخلاق الحميدة يولد بعضها بعضا.

فالمرءة هي كمال الرجولة وهي البداية الحقيقية للدخول في مرحلة التربية الإيمانية، التي يتغلب فيها العقل على الشهوة تغلبا تاما وينتصر عليها، لهذا قيل في أقدم ما كتب حول المرءة: "المرءة اجتناب الرجل ما يشينه، واجتنأؤه ما يزينه، وأنه لا مرءة لمن لا أدب له، ولا أدب لمن لا عقل له، ولا عقل لمن ظن أن في عقله ما يغنيه ويكفيه عن غيره"⁽³⁾، فقد خلق الله الملائكة عقولا بلا شهوة، وخلق البهائم شهوة بلا عقول، وخلق ابن آدم وركب فيه العقل والشهوة، فمن غلب عقله شهوته التحق بالملائكة، ومن غلب شهوته عقله التحق بالبهائم، وبما أن الفتوة هي آخر المنازل في طريق التربية الإيمانية، فكيف يصل إليها الإنسان الذي سلك طريق الإسلام؟.

4,2. التجربة الإيمانية ومرتبة الفتوة:

الفتوة في اللغة العربية اسم من الفتى "انقلبت الياء واوا لأن الأصل "فُعولة"، والفتا هو الغلام الحدث⁽⁴⁾، استعارت من أيام العرب قبل البعثة صفتا الشجاعة والسخاء، وأصبح الفتى لا يعني الشاب والحدث وإنما "الكامل الجزل من الرجال"⁽⁵⁾، ثم توسعت معانيها أيام بني أمية لتخرج عن العمر والسن، وتشمل معاني المرءة، ثم دخل معنى الإيثار من الصوفية حين تخلوا عن المرابطة والجهاد، ثم ازدحمت المعاني وكثرت الأقوال فيها حين كثرت التصانيف حولها خاصة في العراق وخراسان، معظمها مذكور في

- 1 - (عبد الله الهروي، 1408هـ، ص 11-135).
- 2 - (ابن قيم الجوزية ج 2، ص 295).
- 3 - (صالح اللخمي، 1412هـ، ص 12).
- 4 - (محمد ابن منظور، ص 3347-3348).
- 5 - (ابن منظور).

كتاب الفتوة لابن معمار، والفتوة لأبي عبد الرحمن السلمي، وكتاب "طبقات الصوفية" ورسالة القشيري في التصوف، ثم انحرف المفهوم عن مساره في أواخر عصر بني أمية لتختلف طوائف الفتوة وتظهر "الفتوة المزيفة" التي يمثلها العيارين والشباب المنحرف⁽¹⁾، بعد غزو الروم للرها وديار الجزيرة في نهاية القرن الرابع الهجري، ثم رجع مفهوم الفتوة وأصبح مرادف للمفهوم اللغوي في أوائل القرن الخامس للهجرة حين ظهرت في بلاد الشام فتوة يعرف أصحابها "بالأحداث" واحدها "حدث"، ثم رجعت إلى نصابها حين نجحت الدولة السلجوقية في محاربة الفتوة الزائفة، وحين نشطت الحركة الصوفية، وأنتجت أغلب المفاهيم المتعلقة بالفتوة والتي كانت الأساس الذي اعتمده الخليفة العباسي الناصر لدين الله (575-622هـ) لتشكيل تنظيمات الفتوة، وأوعز في عام 604هـ إلى الفقيه أبي عبد الله محمد بن المعمار (ت 642هـ) لوضع كتاب يكون دستوراً تربوياً للفتيان، وسبب ذلك شعوره بالخطر المحقق بالعالم الإسلامي حين ذاك، ونشطت الفتوة في عصر هذا الخليفة الذي كان هو ذاته أحد عناصرها، ثم خلفه حفيده المستنصر وارتقى بها مرتبة أخرى، إلى أن سقطت الدولة العباسية سنة 656هـ وركد أمر الفتوة في جزيرة العرب لينتقل إلى مصر في عهد الظاهر بيبرس، ثم راجت الفتوة مرة أخرى - في عصر المماليك بمصر والشام.

ومن أوائل من ألف في الفتوة: أبو عبد الرحمن بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد الأزدي السلمي، حيث قدم في نهاية كتابه "الفتوة"، خلاصة لمفهوم الفتوة "علم أن أصل الفتوة هو حفظ مراعاة الدين ومتابعة السنة، وأتباع ما أمر الله به نبيه عليه السلام في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف:199)"⁽²⁾.

فالفتوة هي كمال المروءة التي تنتج عن تمام التربية الإيمانية والشروع في التربية الإحسانية فهذه المنزلة حقيقتها هي منزلة الإحسان⁽³⁾، فهي المدخل إلى هذه المنزلة، وهي آخر مراتب المروءة والفرق بينها وبين المروءة أن المروءة أعم منها، فالفتوة نوع من أنواع المروءة⁽⁴⁾، وإذا كانت المروءة هي "استعمال ما يجمل ويزين مما هو مختص بالعبد أو متعد إلى غيره، وترك ما يندس ويشين، فإن "الفتوة إنما هي استعمال الأخلاق الكريمة مع الخلق"⁽⁵⁾، وهي منزلة شريفة لم تعبر عنها الشريعة باسم الفتوة وإنما استخدمت مصطلح "مكارم الأخلاق"، والفتوة ثلاثة درجات، الدرجة الأولى يكون فيها: ترك الخصومة والتغافل عن الزلة ونسيان الأذية، والدرجة الثانية ويكون فيها: تقريب الذي يقصي وتكريم الذي

1 - (محمد ابن المعمار، 1958م، ص13-14).

2 - (عبد الرحمن السلمي، 1422هـ، ص97).

3 - (ابن قيم الجوزية ج2، ص324).

4 - (ابن القيم).

5 - (ابن القيم).

يؤدي والاعتذار للجاني سماحة لا كظما ومودة لا مصابرة، والدرجة الثالثة: لا تتعلق في السير بذليل، ولا تشوب إجابتك بعوص، ولا تقف في شهودك على رسم⁽¹⁾.

الفتوة إذن هي صورة الإنسان وقد بلغ به المسير في التجربة الإيمانية إلى نهايتها، وأوشك أن يدخل إلى التجربة الإحسانية التي تنتهي به إلى صورة الرجل الأمة صاحب الخلق العظيم والفكر العظيم والإيمان العظيم، فما هي هذه الصورة؟

3,4. التجربة الإحسانية ومرتبة الرجل الأمة:

قبل أن يؤسس مالك بن نبي مشروع "ميلاد مجتمع" ذهب يحدد معنى المصطلح "مجتمع" من الناحية التاريخية، التي تشكل أصول الكيان الاجتماعي، ومن الوجهة التشكيلية التي تتصل ببنائه، ثم من الناحية الوظيفية؛ بداية بالمعاني البسيطة الوصفية الخارجية التي تقدمها القواميس والمعاجم، إلى التحديد الجدلي في نطاق الزمن، وبما أن كل تغيير يطرأ على الخصائص التشكيلية، أو يحدث في التوجيه الثقافي لجماعة إنسانية معينة، هو نتيجة مباشرة لوظيفتها التاريخية، استنتج مالك بن نبي بأن "كل جماعة لا تتطور ولا يعترها تغيير في حدود الزمن، تخرج عن التحديد الجدلي لكلمة مجتمع"⁽²⁾، فالمجتمع هو الجماعة الإنسانية التي تتطور انطلاقاً من نقطة يطلق عليها "ميلاد"، الذي هو حدث يسجل ظهور شكل من أشكال الحياة المشتركة، كما يسجل نقطة انطلاق حركة التغيير التي تتعرض لها الحياة، ويتبلور هذا الشكل في صورة نظام جديد للعلاقات بين أفراد جماعة معينة، وتوصل إلى أن هذه الصورة الجديدة للحياة المشتركة، قد تبدأ بفرد واحد، يمثل في هذه الحالة نواة المجتمع الوليد، وذلك هو المعنى المقصود من كلمة "أمة" عندما يطلقها القرآن الكريم على إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل: 120)، ففي هذه الحالة يتلخص المجتمع الأمة في رجل واحد هو الرجل الأمة، فالتجربة الإيمانية الإبراهيمية نقلته من الفكر العظيم إلى الإيمان العظيم الذي أدخله إلى منزلة الإحسان، وتحقيق الخلق العظيم، خلق المصطفى صلى الله عليه وسلم⁽³⁾.

فقد وصف الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالخلق العظيم، وجمع له مكارم الأخلاق في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: 199)، "فلا ريب أن للمطاع مع الناس ثلاثة أحوال: أحدهما: أمرهم ونهيهم بما فيه مصالحهم، والثاني: أخذه منهم ما يبذلونه مما عليهم من الطاعة، والثالث أن الناس معه قسمان؛ موافق له موال، ومعاد له معارض، وعليه في كل واحد من هذه واجبات"⁽⁴⁾، منها

1 - (ابن القيم ج 2، ص 327-333).

2 - (مالك بن نبي، إعادة ط 3، 1420هـ، ص 16-17).

3 - (ابن قيم الجوزية ج 2، ص 289).

4 - (ابن القيم، ص 290).

الإعراض عن المعادين الجاهلين، والخلق العظيم يقوم على: الصبر والعفة والشجاعة والعدل، ومنشأ جميع الأخلاق السافلة: الجهل والظلم والشهوة والغضب، وفي تنظيم قوى النفس والنعم وتحقيق هذه المنزلة، لطائف كثيرة لم يغفل عنها صاحب "منازل السائرين"⁽¹⁾، وصاحب "مدارج السالكين"، وصاحب "إحياء علوم الدين"، فصورة الرجل الأمة تنتج أساساً عن كمال الفتوة، حيث يتدرج السائر في منازل الإحسان حتى يصل إلى الخلق العظيم خلق المصطفى ﷺ وهذا هو المقصود من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب، 21).

4. خاتمة

وختاماً؛ فقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان في أحسن تقويم، وسوى نفسه وألهمها فجورها وتقواها فكانت مخيرة بين طريقين؛ التزكية والتدسية، فإذا سلك الطريق الأول سعد في منازل السائرين واعتلى مدارج السالكين من الرجولة إلى المروءة إلى الفتوة إلى الرجل الأمة، وإذا سلك الطريق الثاني هبط إلى مرتبة الأنعام أو أظل من ذلك سبيلاً كالحمار والكلب والطاووس والضبع والقرد والخنزير..

ولما كان طريق التزكية يرتبط بالوحي، والاهتداء بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فإن المنطلق هو "الدفعة القرآنية" والإيمان؛ حيث يعقد الإنسان النية للدخول إلى الإسلام (التوبة)، فيبدأ بنطق الشهادتين، ثم يشرع في أداء العبادات، والالتزام بالمعاملات، فترتفع مرتبته الأخلاقية إلى المرتبة الإسلامية وتتشكل صورة الرجل "فإن من نزل منزل التوبة وقام مقامها، نزل في جميع منازل الإسلام، فإن التوبة الكاملة متضمنة لها" (ابن قيم الجوزية، 1423هـ، ص 432)، وكلما أتقن العبادات وأدى الفرائض على أتم وجه وزاد في النوافل وارتفع في مراتبها وأحسن المعاملات اقترب من مرتبة الإيمان فيبدأ بصورة المروءة وينتهي بصورة الفتوة.

فالعلاقة طردية جدلية؛ كلما زاد المسلم في إتقان العبادات وألتزم أكثر بالمعاملات، ارتفع إيمانه حتى إذا بلغ أعلى مراتبه وهي "الإحسان" "مرتبة الرؤية التوحيدية"، تشكلت صورة الرجل الأمة صاحب الخلق العظيم، الذي به يكون ميلاد مجتمع يستأنف الدور الحضاري.

ولتحقيق "الدفعة القرآنية الحية" ينبغي التخلص من كل الاختلافات المذهبية (المعرفية والعقدية) - وليس الفقهية-، والالتفاف حول القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وتوفير شروط قراءته، والشروع في قراءته فعلاً، وعدم الاستعجال في انتظار إعجازه ووحيه، ثم الاستفادة من منجزات الحضارة المعاصرة، وما توصلت إليه الخبرة الإنسانية في المجالات العلمية والمنهجية والتقنية، بهذا تنتج الرؤية التوحيدية التي

تتولى مهمة البناء الحضاري وتحريك عجلة التاريخ والإمساك بزمام المسيرة الحضارية والتي يتم بها بناء الإنسان والمجتمع ويحصل التراص والانسجام، وبها يكون احتواء جميع طاقات الأمة وابتكاراتها.

5. قائمة المراجع

- ابن المعمار، محمد ابن أبي المكارم. (1958م). كتاب الفتوة، تحقيق مصطفى جواد وآخرون، ط1. بغداد، طبع بمطبعة شفيق ونشر بمكتبة المثني.
- ابن باديس، عبد الحميد. (2009م). تفسير ابن باديس أو مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، تح أبو عبد الرحمن محمود، ط1. الجزائر، دار الرشيد للكتاب والقرآن الكريم.
- ابن منظور، محمد. لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، القاهرة: دار المعارف، د.ت، د.ط.
- ابن فارس، أحمد. (1399هـ). معجم مقاييس اللغة تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج3، د.ط. بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- البخاري، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل. (1423هـ). صحيح البخاري، ط1. دمشق، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع.
- الجوزية، ابن قيم. (1423هـ). مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق وتعليق محمد معتصم بالله البغدادي، ط7، ج1، بيروت، دار الكتاب العربي.
- الجرجاني، الشريف. (د.ت). معجم التعريفات تحقيق محمد صديق المنشاوي، د.ط. القاهرة، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير.
- الجابري، محمد عابد. (2001م). العقل الأخلاقي العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية، ط1. بيروت مركز دراسات الوحدة العربية.
- الهروي، عبد الله الأنصاري. (1408هـ). كتاب منازل السائرين، د.ط. بيروت دار الكتب العلمية.
- الزمخشري، أبي القاسم. (1419هـ-1998م). أساس البلاغة تحقيق محمد باسل عيون السود، ط1. بيروت، دار الكتب العلمية.
- الحسني، أبي البقاء أيوب بن موسى. (1419هـ). الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ط2. بيروت، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.
- اللخمي، صالح بن جناح. (1412هـ). الأدب والمروءة، ط1. طنطا (مصر)، دار الصحابة للتراث والنشر والتحقيق والتوزيع.
- السلمي، عبد الرحمن محمد بن الحسين. (1422هـ). الفتوة، تحقيق إحسان ذنون الثامري، ومحمد عبد الله القدحات، ط1. عمان (الأردن)، دار الرازي للطباعة والنشر والتوزيع.

- العسكري، أبو الهلال. (د ت). الفروق اللغوية تحقيق محمد إبراهيم سليم، دط. القاهرة، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع.
- الفاروقي، إسماعيل راجي. (1998م). أطلس الحضارة الإسلامية ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، ط1. الرياض، مكتبة العبيكان.
- الفيومي، أحمد بن محمد بن علي. (1987م). المصباح المنير، د ط. بيروت، مكتبة لبنان.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد. (1424هـ). كتاب العين تحقيق عبد الحميد هنداوي، ج1، دط. بيروت، دار الكتب العلمية.
- القاسمي، محمد جمال الدين. (1376هـ). محاسن التأويل، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ج2، ط1. د.ب. د.د.ن.
- الشاطبي، إبراهيم بن موسى. (1997م). الموافقات، ج5، ط1. المملكة العربية السعودية، دار بن عفان للنشر والتوزيع.
- بن نبي، مالك. (تصوير 1406هـ-1986م). الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دط. دمشق، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر.
- بن نبي، مالك. (إعادة 1423هـ-2002م). القضايا الكبرى، ط1 1991م. دمشق، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر.
- بن نبي، مالك. (إعادة 1420هـ-2000م). الظاهرة القرآنية ترجمة عبد الصبور شاهين، ط4: 1987م. بيروت، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر.
- بن نبي، مالك. (إعادة الطبعة الثانية 1422هـ-2001م). بين الرشاد والنتيه، ط1: 1978م. دمشق، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر.
- بن نبي، مالك. (تصوير 1406هـ-1986م عن ط 1981م). وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دط. دمشق، دار الفكر.
- بن نبي، مالك. (إعادة 1420هـ-2000م). ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط3: 1986. بيروت، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر.
- بن نبي، مالك. (إعادة 1423هـ-2002م). من أجل التغيير، ط1: 1995م. دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- بن نبي، مالك. (2009م). مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، ط9. بيروت، دار الفكر المعاصر.

- بن نبي، مالك. (تصوير 1406هـ-1986م). مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، تصوير عن ط4: 1984م. دمشق، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر.
- بن نبي، مالك. (تصوير 1413هـ-1993م). مذكرات شاهد للقرن، تصوير عن ط2: 1984م. دمشق، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر.
- بن نبي، مالك. (تصوير طبعة عن ط 1981م عام 1986م). في مهبط المعركة. دمشق، دار الفكر.
- بن نبي، مالك. (2009م). شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، ط9. دمشق، دار الفكر.
- يرغوث، الطيب. (1425هـ-2004م). مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية، ط1. الجزائر، دار قرطبة للنشر والتوزيع.
- زهد، عصام العبد. (يونيو 2010م). "الرجولة في القرآن الكريم دراسة موضوعية"، مجلة الجامعة الإسلامية سلسلة الدراسات الإنسانية، العدد 02 من المجلد 18.
- طه، عبد الرحمن. (2002م). الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، ط1. الدار البيضاء (المغرب)، المركز الثقافي العربي.
- طه، عبد الرحمن. (1998م). اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط1. بيروت، المركز الثقافي العربي.
- كريس فريث. (2012م). تكوين العقل كيف يخلق المخ عالما ذهني ترجمة شوقي جلال، ط1. القاهرة، المركز القومي للترجمة.
- مهنا، أحمد إبراهيم. (1981م). الإنسان في القرآن الكريم، دط. بيروت، منشورات الكتب العصرية.
- سيد قطب، إبراهيم حسين الشاذلي. (1423هـ). في ظلال القرآن، ط32. القاهرة، دار الشروق.
- Alaiw Bih et Roland, Pfefferkorn. "Les enjeux ideologiques et théoriques d'un (nouveau paradigme), l'exclusion revue, n28, 2001.
- Hans, Wehr. A' dictionary of Modern written Arabic, Edited by J Milton Cowanm third edition, Ithaca. New york, 1976. P731.
- Oxford English- Arabic dictionary. P744.
- Roland, Pfefferkorn: Inégalités et rapports sociaux, La Disput, col1, "le genre du monde", 2007.